

سُورَةُ الطَّارِقِ

مِنْ رَهْبَةِ السَّمَاءِ إِلَى أَنْكَشَافِ السَّرَائِرِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الطَّارِقِ

مِنْ رَهْبَةِ السَّمَاءِ إِلَى انْكِشَافِ السَّرَائِرِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

المقدمة

حين تفرع السماء باب الإنسان

ثمّة سورٌ طويلةٌ تمضي بك في دروب متشعبة، تفتح لك أبواب التاريخ والتشريع والقصص والجدال، وثمّة سور قصيرة لا تمنحك فرصة التيهو؛ تأتيك كومبضٍ خاطف، ولكنها حين تنطفئ في سمعك تكتشف أن ضوءها ما زال مشتعلاً في داخلك. وسورة الطارق من هذا الضرب المهيّب: سبع عشرة آية، غير أنها تحمل سماءً وليلاً ونجماً، وتحمل خلقاً وموتاً وبعثاً، وتحمل سرائر تُختبر، وقوى تهاوى، وقرائناً يفصل، وكيداً يصطدم بتدبير الله، ثم تنتهي بإمهال قصير يوحي بأن الخطوة الأخيرة ليست للباطل، مهما طال وقوفه على المسرح.

إنها سورة تبدأ بعيداً عنك، أو هكذا يبدو لك. ترفع رأسك إلى السماء، وترى طارقاً يلعب في العتمة؛ ثم لا تلبث أن تردّك من السماء إلى نفسك: من أين جئت؟ ومن أي شيء خلقت؟ ومن كان معك حين لم تكن شيئاً مذكوراً؟ ومن أحصى خطواتك بعد أن صرت تمشي على الأرض كأنك تملكها؟

ثم تنتقل بك من ظاهر الجسد إلى باطن السريرة، ومن مهد الخلق إلى مشهد الحساب، ومن ضوء النجم إلى نور القرآن، ومن كيد البشر إلى تدبير رب البشر. وما بين أول السورة وآخرها ينهار الوهم الكبير الذي يلازم

الإنسان: وهم أنه متروك، وهم أنه مستور عن الله، وهم أنه قادر بذاته،
وهم أن الباطل إذا دبر في الخفاء فقد خرج من سلطان الخالق.

ليس المقصود من هذه الصفحات أن نستبدل التفسير بالأدب، ولا أن
نحمل ألفاظ القرآن على ما لا تحتل، ولا أن نجعل من الانفعال الوجداني
دليلاً على معنى لم يقل به أهل العلم. إنما المقصود أن نقف أولاً عند المعنى
الذي دلّت عليه اللغة والسياق، ويئنه المفسرون، ثم ندع هذا المعنى الصحيح
يعبر من الذهن إلى القلب، ومن المعرفة إلى الموقف، ومن الآية المقروءة إلى
الحياة المعيشة.

ولهذا سيسير هذا الكتاب في كل محطة على ثلاثة مستويات واضحة:

التفسير المنقول: وهو بيان المعنى القريب للآية اعتماداً على أمهات التفسير
المعتبرة، مع ذكر الخلاف المشهور عند وجوده، من غير اختلاق للنقول ولا
تعسف في الترجيح.

التأمل الأدبي: وهو الوقوف عند ظلال المعنى، وإيقاع الصورة، وعلاقتها
بحركة النفس، على أن يبقى التأمل تابعاً لدلالة الآية لا متسلطاً عليها.

الإسقاط التربوي المعاصر: وهو السؤال الذي توجهه الآية إلى إنسان هذا
العصر: إلى خوفه، وغفلته، واستعراضه، واغتراره بالأسباب، وقلقه من
كيد الآخرين، وحاجته إلى يقين يعيد ترتيب قلبه.

والفرق بين هذه المستويات ضروري؛ لأن التفسير يقول: هذا معنى الآية
في أصل دلالتها، أما التأمل فيقول: هذا أثر من آثار ذلك المعنى في القلب،
والإسقاط التربوي يقول: هذه صورة من صور انتفاعنا به في واقعنا. وليس
كل خاطر تفسيرياً، ولا كل مشهد معاصر سبباً لنزول الآية، ولا كل معنى
جميل يصح أن ينسب إلى مراد الله الجازم.

سندخل السورة إذن كما يدخل المسافر ليلاً في طريق لا يعرف نهايته،
لكنه يرى فوقه نجماً لا يضل. سنرفع رؤوسنا قليلاً، لا هرباً من الأرض،
بل لنعود إليها بعيون أكثر إبصاراً. سننظر إلى السماء، ثم إلى القطرة، ثم إلى
السريرة، ثم إلى القرآن، ثم إلى تدبير الله؛ وحين نبليغ نهاية الرحلة قد
نكتشف أن الطارق لم يكن يطرق أبواب الليل وحدها، بل كان يطرق فينا
بأباً أوصدته العادة، وتراكت عليه غفلة الأيام.

إن أقصر الطرق إلى يقظة الإنسان قد يبدأ من أبعد نقطة يراها: من نجم
في السماء. وأقرب الحقائق إليه قد تكون أكثرها غيباً عنه: أنه محفوظ
العمل، مكشوف السريرة، مردود إلى ربه.

هذه ليست رحلة بحث عن نجمة بعيدة، بل رحلة بحث عن الإنسان
الذي ينبغي أن يستيقظ تحت ضوءها.

التمهيد

سورة قصيرة تُسَمَّى للمصير

اسم السورة ومكيَّتها

عُرِفَتْ في المصاحف وكتب السنة والتفسير باسم سورة الطارق، لورود لفظ «الطارق» في مطلعها، وُذِّكرَتْ في بعض كتب التفسير بعنوان سورة والسماء والطارق. وهي سبع عشرة آية، ومكية باتفاق من نقل الإجماع من أهل التفسير، ومنهم ابن عاشور. وموضوعاتها وإيقاعاتها تحمل سمات الخطاب المكي: تثبيت أصول الإيمان، وإقامة الدليل على البعث، وإيقاظ الشعور برقابة الله، وتقرير صدق القرآن، وتهديد المكذِّبين من غير استطراد في تفصيل الأحكام. التحرير والتنوير - مقدمة سورة الطارق

ولا يثبت للسورة - فيما نعتمد عليه هنا - سبب نزول خاص يجمع آياتها كلها، ولذلك لا ينبغي أن نضيق خطابها العام بمحادثة لم يدل عليها نقل صحيح. إنها تخاطب الإنسان المكذب بالبعث، كما تخاطب كل نفس يوشك أن ينسبها امتداد الحياة أنها مراقبة، وأن بدايتها تحمل دليل نهايتها، وأن ما تخفيه اليوم سيغدو غداً موضع اختبار وظهور.

موضوع السورة العام

يمكن ردُّ مقاصد السورة إلى أربعة أصول كبرى:

- إحاطة الحفظ الإلهي بكل نفس وما يصدر عنها.
- إثبات قدرة الله على بعث الإنسان من خلال تذكيره بأصل خلقه.

• بيان انكشاف السرائر وبطلان القوة المجردة من عون الله.

• تقرير أن القرآن قول فاصل، وأن كيد المكذبين واقع داخل تدبير الله وإمهاله.

لكن هذه الأصول لا تأتي منفصلة، بل تنتظم في حركة واحدة: فالذي جعل في السماء طارقاً، وجعل على كل نفس حافظاً، هو الذي خلق الإنسان من ماء، وهو القادر على إعادته، وهو الذي يختبر سريره، وأنزل القول الفصل، وأحاط بكيد المكذبين.

ليست السورة مجموعة موضوعات متناثرة؛ إنها قبضة واحدة تمسك بالإنسان من غروره، ثم ترده إلى حقيقته.

وحدتها الداخلية

تبدأ السورة بشيء يظهر في الظلام: النجم الثاقب. ثم تنتهي بشيء يجري في الخفاء: كيد المكذبين. وبين الظهور والخفاء يأتي يوم تُظهر فيه السرائر. كأن السورة كلها تتحرك في المسافة بين المستور والمكشوف: نجم كان يحجبه النهار فظهر في الليل، وعمل تحفظه الملائكة وإن غاب عن الناس، وأصل خلق يستحي المتكبر من تذكره، وسريرة يخفيها صاحبها، وكيد يدبر في

الخفاء، ثم يبجيء علم الله وتديره ليكشف أن الخفاء وصف نسي في عالم البشر، أما عند الله فلا يغيب شيء.

وفي أول السورة قسم بالسماء والطارق، وفي وسطها قسم بالسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع. القسم الأول يتلوه الحديث عن حفظ النفس وبعثها، والقسم الثاني يتلوه الحديث عن حقيقة القرآن. فالكون شاهد على الإنسان، وشاهد على الوحي؛ والذي أحكم نظام السماء والأرض لم يخلق الإنسان سدى، ولم ينزل عليه كلاماً هزلاً.

إيقاعها

للسورة إيقاع قصير متتابع، تتعاقب فيه القوافي القوية: الطارق، الثاقب، حافظ، دافق، ثم تنتقل إلى جرس آخر: السرائر، ناصر، ثم إلى: الرجع، الصدع، فصل، الهزل، وتُختَم بإيقاع الكيد والإمهال: كيداً، رويداً. وهذا الإيقاع ليس زينة صوتية منفصلة عن المعنى؛ ففي المطلع جرس يشبه الطرق المتتابع، وفي مقطع الخلق قوة دفع وحركة، وفي مشهد السرائر نبرة انكشاف وحسم، وفي الخاتمة هدوء مهيب لا يخلو من الوعيد. كأن الصوت نفسه يسير بالقارئ من الدهشة إلى المواجهة، ثم من المواجهة إلى اليقين.

مسار الرحلة

ترفع السورة عينك أولاً، ثم تخفضها إلى أصلك، ثم تدخل بها إلى سريرتك، ثم ترفعها مرة أخرى إلى السماء والأرض، ثم تضع بين يديك القرآن، ثم تريك معركة الحق والباطل من موقع أعلى من ضجيجها.

إنها لا تبدأ بسؤال: ماذا فعلت؟ بل تبدأ بسؤال أسبق: هل استيقظت
أصلاً؟ لأن الإنسان قبل أن يحاسب نفسه يحتاج إلى ما يوقظه، والسماء
حين تُقرأ بوصفها آية لا بوصفها سقفاً بعيداً، قادرة على أن توقظ في القلب
ما عجز عنه ضجيج الأرض.

الفصل الأول

طَرُقُ فِي صَمْتِ اللَّيْلِ

كان الليل في الأزمنة الأولى ينزل على الناس كاملاً. لا أضواء مدن تمزق ظلمته، ولا شاشات صغيرة تستبقي النهار بعد غروبه، ولا ضجيج آلي يمنع الإنسان من سماع الصمت. فإذا رفع المرء رأسه رأى السماء كما لو أنها كتاب مفتوح، ورأى النجوم لا بوصفها نقاطاً باهتة في خلفية الحياة، بل مصابيح حضور، توقظ فيه سؤال المسافة والمصير.

وفي ذلك الصمت جاء القسم:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾

[سورة الطارق: 1]

لم تقل الآية: انظروا إلى السماء، ولكنها أقسمت بها، فصار القسم نفسه دعوةً إلى النظر. فالشيء الذي يقسم الله به من مخلوقاته يحمل من الدلالة على قدرته وحكمته ما يجعله جديراً بأن يتوقف عنده القلب، مع اليقين بأن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله.

غير أن الآية لا تذكر السماء وحدها؛ إنها تضم إليها الطارق، فتجعل المشاهد ذا حركة. السماء امتداد ساكن في نظر الرائي، والطارق وافد يظهر فيها؛ السماء فضاء، والطارق حدث؛ السماء صمت مهيب، والطارق كأنه قرعة نور على باب ذلك الصمت.

ومن هنا تبدأ الرحلة: شيء ييجيء في الليل، ولكنه لا ييجيء ليزيد الظلام، بل ليكشفه.

المعنى التفسيري

ذهب جمهور المفسرين إلى أن «الطارق» هنا هو النجم الذي يظهر ليلاً؛ لأن الطروق في أصل الاستعمال يدل على المجيء ليلاً. وذكر الطبري أن الطارق من النجوم المضيئة يطرق ليلاً ويخفى نهاراً، ثم جاءت الآيتان التاليتان فبيّنتا المراد به: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ». وشرح ابن عاشور أصل التسمية بأن القادم ليلاً كان يُسمى طارقاً، ثم غلب الطروق على القدوم في الليل. تفسير الطبري، التحرير والتنوير

والمهم هنا أن القرآن لم يترك «الطارق» مجهولاً، بل فسّره في السياق نفسه. لذلك لا حاجة إلى تعليق معنى السورة على فرضيات فلكية متغيرة، ولا إلى البحث عن ظاهرة كونية حديثة نجعلها مراد الآية حصراً. قد تتسع المعرفة البشرية بالنجوم، لكن المعنى القرآني الذي تقوم عليه الهداية واضح: قسم بالسماء، وبالنجم الظاهر ليلاً، النافذ بضياءه في الظلمة.

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذا النجم: فقليل هو نجم مخصوص كالثرثريا أو زحل أو غيرهما، وقليل المراد جنس النجوم المضيئة، وهو اختيار رحمه السعدي. ولا دليل قاطع في نص الآية يلزم بتعيين نجم بعينه؛ ولذلك يبقى التدبر قائماً على الوصف القرآني الثابت: طارق، نجم، ثاقب، لا على تعيين محتمل. تفسير السعدي

• لماذا يبدأ النداء في الليل؟

الليل ليس مجرد زمن يغيب فيه قرص الشمس؛ إنه الحالة التي تخف فيها المرئيات، وتعلو فيها الأصوات الداخلية. في النهار تنوزع النفس على الطرق والوجوه والأعمال، أما في الليل فتنسحب الأشياء قليلاً، ويجد الإنسان نفسه أقرب إلى ذلك السؤال الذي يؤجله طويلاً: ماذا بقي مني حين هدأ كل شيء؟

ولهذا يبدو الطارق مناسباً لبداية السورة. إنه لا يظهر وسط الزحام، بل في الفضاء الذي انحسر عنه الضوء القريب، حتى أمكن رؤية الضوء البعيد. وقد تكون هذه واحدة من مفارقات الروح: أن بعض الأنوار لا تُرى إلا بعد أن تنطفئ أنوار أخرى. فالإنسان الذي تملأ عينيه مصابيح السوق قد لا يرى نجمة، والذي تملأ قلبه شهرة الناس قد لا يرى حقيقة نفسه، والذي يحيط حياته بضوء لا تنقطع قد يخشى أن يخلو إلى السؤال؛ لأنه يعلم أن في الداخل أبواباً مؤجلة، وأن عليها طرقاً ظل يتجاهله.

يجيء القسم إذن كقرعة أولى:

• انتبه؛ فالكون ليس صامتاً كما تظن.

إنه صامت بحروف البشر، ولكنه ناطق بالدلالة. لا يقول النجم كلمة، ومع ذلك يخبر عن قدرة أظهرته، وعن نظام حمله، وعن توقيت يعيده، وعن عين بشرية خلقت بحيث تلتقي ضوءه بعد أن قطع ما قطع من المسافة. وحين يقسم الله به، ينتقل من كونه مشهداً جميلاً إلى كونه شاهداً في قضية كبرى.

القضية ليست جمال السماء وحده، بل حقيقة الإنسان تحتها.

من السماء إلى القلب

كثيراً ما يعيش الإنسان كأن السماء غير موجودة. يمشي تحتها كل يوم، لكنها لا تدخل في حسابه. يعرف لونها في نشرات الطقس، ويعرف اضطرابها قبل السفر، ويصور غروبها حين يروق له المنظر؛ غير أنها لا توقظه إلى معنى العبودية. تتحول السماء في عينه إلى خلفية صامتة لنشاطه الأرضي، كما تتحول النعم المتكررة إلى أشياء لا تثير الشكر لأنها لم تنقطع.

وهنا يعيد القرآن للسماء مهبتها.

ليست السماء سقفاً للمدينة، ولا مساحة زرقاء فوق الأبنية، ولا حقلاً محايداً تتحرك فيه الأجرام بلا دلالة؛ إنها مخلوق عظيم، وآية مفتوحة، وأثر من آثار القدرة. فإذا أقسم الله بها، كان في القسم رد للإنسان إلى حجمه الحقيقي: أنت لست مركز هذا الوجود، وإن كنت مكرماً فيه؛ ولست مالِكاً للمشهد، وإن أذن لك أن تنظر إليه؛ ولست متروكاً تحت هذا الاتساع، وإن أوهمتك وحدتك بذلك.

كم يبدو الإنسان صغيراً حين يقف تحت السماء، لكن هذا الصغر لا يعني الهوان. إن الذي خلق هذا الاتساع هو نفسه الذي سيتحدث بعد آيات عن كل نفس، وعن حافظ عليها. ليست عظمة الكون دليلاً على أن الإنسان منسي، بل في السورة تصبح عظمة السماء مقدمة للقول إن كل نفس محسوبة ومحفوظة.

وهذا من أرق ما تهبه السورة للقلب: أنها تجمع بين اتساع الكون ودقة العناية. فلا السماء الواسعة تشغل الخالق عن النفس الواحدة، ولا كثرة النفوس تجعل عمل إنسان مجهولاً في الزحام. أنت صغير أمام السماء، ولكنك لست ساقطاً من علم الله.

الإسقاط التربوي المعاصر

الإنسان الذي أطفأ الليل

صنع الإنسان الحديث ليلاً لا يظلم. أضواء الشوارع والمنازل والمحال، ومدّ ساعات العمل والترفيه، وحمل في يده شاشة تستطيع أن تستبقي العالم كله مستيقظاً إلى جواره. وقد كسب بذلك منافع لا تترك، لكنه خسر — إن لم ينتبه — مساحة ثمينة من الصمت.

لم يعد الليل يطرق بابه؛ لأنه أغلق الباب بالضوء والضجيج.

يستلقي أحدنا في آخر يومه، فلا يترك لنفسه لحظة ترى فيها ما فعلت. ينتقل من خبر إلى خبر، ومن صورة إلى صورة، ومن حديث إلى حديث، حتى يسقط الهاتف من يده ويغلبه النوم. لم يختل بنفسه، ولم يرفع رأسه، ولم يسأل: أي شيء في داخلي نما اليوم؟ وأي شيء مات؟ ما الذي قلته وكان ينبغي ألا أقوله؟ ما الذي أخفيته خلف ابتسامة محسوبة؟ ما الذي طلبته من الناس وكان ينبغي أن أطلبه من الله؟ وما الطريق الذي أمشي فيه إذا امتد بي العمر؟

ليس العيب في الضوء ولا في الوسيلة، وإنما في أن تتحول الوسيلة إلى حارس يمنع الحقيقة من الدخول.

إن في النفس أبواباً لا يطرقتها المعنى إلا حين يسكت العالم قليلاً. والتدبير ليس نشاطاً ذهنياً إضافياً نزاحم به بقية الأنشطة، بل عودة إلى قابلية السماع. قد تكون الآية أمام العين منذ سنوات، ولكنها لا تدخل؛ لأن الداخل ممتلئ بأصوات أخرى.

سورة الطارق لا تطلب من الإنسان أن يهجر الحياة، بل أن يستعيد لحظة النظر التي تمنحه معنى لحياته. أن يكون له ليل، ولو قصير، لا تقطعه الإشعارات. أن يخرج من تدفق الصور إلى صورة واحدة: سماء وطارق. أن يشعر بأن الكون أقدم من قلقه، وأوسع من مشكلته، وأن تدبير الله لا يبدأ حين يفشل البشر، بل كان قائماً قبل أن يبدأ البشر تدبيرهم.

مشهد: نافذة المستشفى

يجلس رجل في ممر مستشفى بعد منتصف الليل. خلف الباب غرفة يرقد فيها من يحب، وأمامه نتيجة لم تظهر بعد. كان طوال النهار يتصل بالأطباء والأقارب، يبحث في المواقع، يراجع الاحتمالات، ويفاوض خوفه بكل معلومة جديدة. ثم هدأ المكان، وانفض الزائرون، وأغلقت المقاهي الصغيرة، وبقي وحده إلى جوار نافذة عالية. رفع رأسه لأول مرة.

رأى نجمة بعيدة لا تعرف شيئاً — في ظاهر الأمر — عن هذا الممر ولا عن الملف الطبي الذي يحمله. لكن الآية مرت في قلبه:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾

[سورة الطارق: 1]

لم تمنحه النجمة تشخيصاً، ولم يتغير تقرير الطبيب، ولكن موقعه الداخلي تغير. شعر أن العالم ليس محصوراً في ذلك الباب المغلق، وأن قدرة الله لا تقف عند حدود ما يعرفه الأطباء، وأن الخوف الذي ملاً الأفق لم يكن الأفق كله.

ثم جاءه المعنى الأعمق: إن الذي يدبر ذلك النجم البعيد لا تغيب عنه هذه الغرفة الصغيرة، والذي وسع علمه السماء لا تضع عنه رجفة قلب في مر مستشفى.

هذه ليست دلالة تفسيرية مخصصة للآية، فلا يصح أن نقول إن الآية نزلت لتعد كل خائف بزوال ما يخافه، أو إن رؤية النجم علامة على نتيجة بعينها. لكنه أثر تربوي صحيح ناشئ من الإيمان بالخالق الذي أقسم بالسماء والطارق: أن يخرج الإنسان من سجن السبب الواحد إلى سعة التوكل، وأن يأخذ بالأسباب دون أن يؤلِّهها، وأن يعرف أن جهله بما سيقع لا يعني أن الأمر خرج عن علم الله.

الطارق الذي نخشاه والطارق الذي نحتاجه

نحن نخاف الطوارق لأنها تفاجئنا. خبر يأتي في الليل، اتصال متأخر، ألم مباغت، ذكرى تنهض من مكان ظننا أنها ماتت فيه. صار الطارق في الوجدان مقروناً بما يقلق؛ لأن المجيء ليلاً يقتحم سكون الإنسان ويضعه أمام ما لم يستعد له.

لكن السورة تبدأ بطارق من نوع آخر: طارق لا يحمل ظلاماً، بل يحمل ضوءاً.

وهذا التحويل جدير بالتأمل. فليس كل ما يوقظك شراً، وليس كل ما يقطع اعتيادك مصيبة. قد تأتيك آية فتفسد عليك طمأنينة زائفة، وقد تمر بك محنة فتوقظ سؤالاً دفنته الراحة، وقد تسمع كلمة صادقة تطرق موضعاً شديد الحساسية في نفسك. نتألم أول الأمر لأنك كنت تظن السلامة في استمرار النوم، ثم تكتشف أن النجاة كانت في الاستيقاظ.

إن أخطر الأبواب ليست الأبواب المغلقة، بل الأبواب التي لم يعد أصحابها يسمعون طرقها.

كم مرّت بالإنسان آية فلم يفتح؟ وكم ناداه ضميره ثم أسكته بالتبرير؟ وكم رأى من تقلّب الدنيا ما يكفي ليعيد حساباته، لكنه اكتفى بالتعجب ثم عاد إلى عاداته؟ إن الغفلة لا تعني غياب الأدلة، بل قد تعني تكرار الأدلة حتى يفقد القلب حساسية الاستجابة لها.

والقرآن يعيد إلى الأشياء قدرتها على الإدهاش: السماء التي ألقناها، والنجمة التي صغرت في أعيننا، والليل الذي حولناه إلى امتداد للنهار. يعيد ترتيب المشهد حتى يصير المؤلف رسولاً إلى القلب.

القسم الذي يهيئ للحقيقة

لا يأتي القسم في القرآن لزيادة جمال العبارة فحسب، بل لتوكيد حقيقة عظيمة، ولفت النظر إلى الصلة بين المقسم به والمقسم عليه. وسيأتي جواب القسم:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

[سورة الطارق: 4]

فالسما والطارق ليسا خاتمة المشهد، بل مقدمته. إنهما يهيئان النفس لتلقي حقيقة الرقابة والحفظ. فمن رأى دقة النظام في السماء لم يستبعد دقة الإحصاء في الأرض، ومن أيقن أن النجم لا يضل مداره بأمر الله، لم يظن أن أعمال البشر تتأثر بلا حساب، أو أن السرائر تذوب في ظلمة النسيان.

غير أننا لن نسبق رحلة السورة. يكفيننا في هذه المحطة أن نقف عند الطرق الأول، وأن نتبها للسؤال الذي سيعظم شأن الطارق قبل أن يكشفه:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾

[سورة الطارق: 2]

فالقرآن لا ينقل العين من مشهد إلى مشهد بسرعة الغافل؛ إنه يوقفها، يثير السؤال، ويوسع مساحة الدهشة. كأن بين رؤية الشيء ومعرفة حقيقته مسافة لا يقطعها إلا الوحي.

وقد رأى الناس النجوم قبل نزول القرآن بآلاف السنين، لكن الرؤية وحدها لم تكن كافية. العين ترى النجم، والوحي يضعه في موضعه من الهداية. العين تقول: ضوء بعيد، والوحي يقول: آية مقسم بها، تعبر بك إلى حقيقة نفسك.

إن الأشياء لا تتغير حين يضيئها الوحي، لكن الإنسان هو الذي يتغير؛
يرى السماء نفسها، إلا أنه لا يعود الشخص نفسه الذي كان يمر تحتها ولا
يرفع رأسه.

صدى الآية

ربما لم تكن المشكلة أن السماء بعيدة، بل أن القلب مغلق. وحين يطرق
النور باب الإنسان لا يسأله كم كان الليل طويلاً، بل يسأله: هل بقي فيك
موضع يستجيب؟

فالتارق لا يهزم الظلمة بضجيج، وإنما يكفيه أن يضيء.

الفصل الثاني

النجم الذي يثقب الظلمة

ليست كل الأشياء التي تراها العين قد عرفها القلب. قد يمر الإنسان تحت السماء عمراً كاملاً، ويحصي مواقع النجوم، ويعرف أوقات طلوعها وأفولها، ثم لا يقع في روحه شيء من جلالها؛ لأن المعرفة التي تقيس المسافة ليست هي المعرفة التي توقظ الدلالة، والعين التي ترى الضوء ليست بالضرورة هي القلب الذي يهتدي به.

ولهذا لم تنتقل السورة من ذكر الطارق إلى بيانه انتقالاً مباشراً، بل وضعت بين الاسم والتفسير سؤالاً مهيئاً:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾

[سورة الطارق: 2]

ثم جاء البيان:

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾

[سورة الطارق: 3]

كان يمكن أن يقال منذ البدء: والسماء والنجم الثاقب. ولكن التعبير القرآني أراد أن يصنع في النفس مساحةً للدهشة؛ ذكر الطارق أولاً، ثم سأل عنه، ثم كشفه. فالخبر الذي يأتي بعد السؤال لا يستقر في العقل كما

تستقر المعلومة العابرة، بل يدخل بعد أن هياً الاستفهام له موضعاً في النفس.

إن القرآن لا يخبرك بالطارق فحسب؛ إنه يعلمك كيف تستقبل خبره.

المعنى التفسيري

استفهام التعظيم والتشويق

تأتي صيغة:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾

في القرآن لتعظيم شأن المسؤول عنه، وإشعار المخاطب بأن حقيقته أو منزلته ليست مما يستقل الإنسان بمعرفته على وجهها دون بيان من الله. وليس المراد نفي المعرفة بعد البيان؛ فالآية التالية بينت الطارق بقول الله تعالى:

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾

[سورة الطارق: 3]

فالسؤال هنا ليس طلباً لجواب من المخاطب، وإنما هو استفهام للتفخيم والتشويق: أي شيء أعلمك بحقيقة هذا الطارق وعظيم شأنه؟ ثم تولى الوحي تعريفه.

وقد ذكر المفسرون أن النجم هو الجرم المضيء المعروف في السماء، وأن الثاقب هو النافذ بضوئه، المتوقد المتلألئ، الذي يثقب الظلمة بنوره. قال

الطبري في معنى الثاقب: إنه يتوقد ضياؤه ويتوهج، ونُقل عن ابن عباس تفسيره بالمضيء.. تفسير الطبري لسورة الطارق

واختلف أهل التفسير في تعيين النجم المقصود: فقليل الثريا، وقيل زحل، وقيل غير ذلك، وذهب فريق إلى أن المراد جنس النجوم التي تظهر ليلاً ويثقب ضوؤها الظلام. وليس في الآية نص قاطع يوجب حصرها في جرم فلكي محدد؛ ومن هنا فالأحوط أن يُبنى التدبر على الوصف القرآني المحكم، لا على تعيين مختلف فيه.

ولا يصح أن نربط الآية ربطاً جازماً بنجم نابض أو ثقب أسود أو ظاهرة اكتشفها علم الفلك الحديث، ثم نزعم أن ذلك هو المعنى الذي أرادته القرآن حصرًا. فمثل هذه المطابقات المتكلفة تنقل الآية من هدايتها البينة إلى فرضيات قابلة للتغير، وقد تجعل صحة المعنى القرآني معلقةً على فهم علمي بشري يراجع ويتطور.

الآية لا تحتاج إلى هذا التكلف كي تكون مدهشة؛ يكفي أن تراها كما أرادت: نجماً يطرق ليلاً، وضوءاً ينفذ في الظلمة، ومخلوقاً أقسم به خالقه لبيئ النفس لحقيقة كبرى.

التأمل الأدبي

السؤال الذي يعيد للأشياء هيبتها

يولد الإنسان وفيه قدرة واسعة على الدهشة. يطيل الطفل النظر إلى المطر كأنه يراه للمرة الأولى، ويحدق في القمر، ويسأل عن النجوم، ويمد يده إلى الضوء المنعكس على الجدار. ثم يكبر، فلا تكبر دهشته معه دائماً؛ تتكاثر أسماء الأشياء في ذهنه، وتقل حقائقها في قلبه.

يعرف أن هذا نجم، وأن تلك سماء، وأن الماء ينزل من السحاب، وأن
البذرة تنبت في الأرض. وحين يمنح الشيء اسماً يظن أنه أحاط بسرّه. كأن
الاسم خاتمة المعرفة، مع أنه قد يكون أول أبوابها.

وهنا يأتي السؤال القرآني:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾

[سورة الطارق: 2]

ليقول للإنسان: ليس كل ما عرفت اسمه قد عرفت قدره، وليس كل
ما اعتادت عليه عينك قد استوفى قلبك دلالته. أنت تقول: نجم؛ ولكن
ماذا أدراك ما النجم حين يصير آية؟ وتقول: ليل؛ ولكن ماذا أدراك ما
الليل حين يصبح مسرّحاً للقسَم؟ وتقول: إنسان؛ وستسألُك السورة بعد
قليل: هل نظرت حقاً مم خلقت؟

إن من وظائف القرآن أن ينزع عن الموجودات غبار الألفة. لا يخلق
سماء جديدة أمامك، ولكنه يخلق عيناً جديدة فيك. لا يزيد النجوم عدداً،
ولكنه يزيدها في شعورك معنى. لا يخرج الإنسان من العالم الذي عاش فيه،
بل يخرجّه من طريقته الغافلة في رؤيته.

وقد تكون الغفلة أحياناً عجزاً عن السؤال. ليس لأن الأجوبة غائبة، بل
لأن القلب فقد الإحساس بأن وراء المألوف ما يستحق التوقف.

منذ كم سنة لم ترفع رأسك إلى السماء إلا لتعرف هل ستمطر؟
منذ كم ليلة لم تنظر إلى نجم دون أن تبادر إلى تصويره؟
منذ كم وقت لم تقف أمام مشهد جميل من غير أن تحوّلَه إلى مادة للعرض
على الآخرين؟

لقد تعلم الإنسان الحديث أن يوثق اللحظة قبل أن يعيشها، وأن يرسل
المشهد قبل أن يستقبله، وأن ينظر بعين الكاميرا أكثر مما ينظر بعين القلب.
وحين يفعل ذلك مراراً، يصير العالم كله صوراً كثيرة ومعنى قليلاً.

أما القرآن فيوقف اندفاعه بسؤال واحد:

• وما أدراك؟

إنه لا يمنع المعرفة، بل يحرقها من الغرور. يذكرك بأن وراء المعلومة
رتبة من الفهم، ووراء الفهم رتبة من الخشوع، ووراء الخشوع تحولاً في
طريقة العيش.

• لماذا «الثاقب»؟

لم يقل النص: النجم الجميل، ولا النجم البعيد، ولا النجم الالامع
فحسب، بل قال:

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾

[سورة الطارق: 3]

وفي لفظ الثاقب حركة وقوة ونفاذ. إنه ضوء لا يقف على سطح الظلمة،
بل يبدو كأنه يخرجها. لم يبدد الليل كله، ولم يحوّل العتمة إلى نهار، لكنه
فتح فيها منفذاً للنور.

وهنا يلوح معنى تربوي دقيق: ليست وظيفة النور دائماً أن يزيل الظلام
كله دفعة واحدة؛ قد تكون هدايته الأولى أن يثبت لك أن الظلام ليس
مطبّقاً، وأن في جداره ثقباً يمكن أن تعبر منه الروح.

كم من إنسان ينتظر كي يستقيم أن تزول كل فتنته، وأن تنتهي كل مشكلاته، وأن تنكشف له الخطة كاملة، وأن يصبح الطريق نهراً لا التباس فيه. لكنه قد يموت وهو ينتظر ذلك النهار المتخيل. فالهداية في كثير من الأحيان لا تمنحك ضوء الطريق كله، بل تمنحك من النور ما يكفي للخطوة التالية.

آية واحدة قد نثقب تراكماً كثيفاً من الغفلة.
كلمة صادقة قد تفتح في قلب مقفل كوة للرجوع.
دمعة في جوف الليل قد لا تحو تاريخاً من التقصير، لكنها تعلن أن القلب لم يمت.
اعتراف واحد بالخطأ قد لا يصلح ما تهدم كله، لكنه يفتح أول طريق الإصلاح.

ليس النور قليلاً لأنه لم يحول ليلك إلى نهار كامل؛ يكفي في بدايته أن يمنحك من الاعتقاد أن الليل أبدي.

النور الذي لا يدعي أنه الشمس

في وصف النجم بالثاقب تربية خفية على فهم أدوار النور في الحياة. فليس كل من حمل قبساً صار شمساً، وليس كل من عرف مسألة صار محيطاً بالعلم، وليس كل من فتح الله له باباً من البيان صار مالِكاً للحقيقة كلها.

النجم يهدي في مجاله، ولا يدعي أنه يملأ الكون بضوئه. وهذه صورة يحتاج إليها طالب العلم، والكاتب، والداعية، والمربي، وكل من وُهب شيئاً من القدرة على التأثير. فقد يتحول النور الذي أُعطيهِ الإنسان إلى فتنة إذا

نسبه إلى نفسه، أو ظن أنه استغنى به عن سائر الأنوار، أو جعل من قدرته على البيان سلطاناً على قلوب الناس.

إن أجمل الأنوار ما دلَّ على مصدره، وأقبحها ما حجب الإنسان بالنور الموهوب عن واهب النور.

النجم لا يقول: انظروا إليَّ لأنني صنعت ضوئي. إنما وجوده كله شهادة على خالقه. وكذلك الكلمة الصادقة لا ينبغي أن تنتهي بالقارئ إلى تعظيم الكاتب وحده، بل أن تعبر به إلى الحقيقة التي خدمتها الكلمة.

الأدب في حضرة القرآن لا ينافس النور، بل يصقل النافذة.

من ثقب السماء إلى ثقب القلب

الظلمة الخارجية واضحة؛ يعرفها الإنسان حين تغيب الشمس وتنطفئ المصابيح. أما الظلمة الداخلية فأشدَّ مراوغة؛ لأنها قد تخفى في هيئة أفكار وجج ومواقف يظن صاحبها أنها نور.

قد يكون الحسد ظلمة، لكنه يرتدي ثوب النقد.

وقد يكون الكبر ظلمة، لكنه يتكلم باسم الكرامة.

وقد يكون الخوف ظلمة، لكنه يسمى نفسه حكمة.

وقد تكون الرغبة في مدح الناس ظلمة، لكنها تخفى في صورة خدمة الحق.

وقد يكون التعلق بالدنيا ظلمة، لكنه يقدم نفسه بوصفه حسن تدبير

للمستقبل.

ولذلك يحتاج القلب إلى نور ثاقب، لا نور يلع على سطحه ثم يترك

طبقاته العميقة كما هي. يحتاج إلى آية تنفذ من الصورة التي صنعها الإنسان

عن نفسه، حتى تبلغ الدافع الذي لا يريد رؤيته.

كثيرون يقبلون النور ما دام يضيء أخطاء الآخرين. فإذا دار الضوء نحو سرائرهم ضاقوا به. يحبون القرآن حين يمنحهم الحجة على خصومهم، لا حين ينتزع منهم الحجة التي يحتجون بها لأنفسهم.

لكن النور القرآني ليس مصباحاً نخله حيث نشاء ونطفئه عما نشاء، إنه ثاقب. يعبر المظهر إلى الجوهر، والفعل إلى النية، والكلمة إلى باعثها، والخصومة إلى حظ النفس المختبي فيها.

ومن هنا تتصل صورة النجم بمشهد السرائر الآتي في السورة. فالذي يثقب الظلمة في السماء يهتئ القلب ليؤمن بيوم تُخترق فيه ظلمات الداخل، فلا يبقى سر وراء بابه، ولا نية وراء عبارتها، ولا حقيقة وراء قناعها.

الإسقاط التربوي المعاصر

أضواء كثيرة وعممة باقية

لم يعرف الإنسان زمناً ازدهم بالأضواء كهذا الزمن. الشاشات مضئية، والمدن مضئية، والمنصات تعج بالأصوات والصور، والمعلومات تسافر في لحظة من أقصى الأرض إلى أقصاها. لكن كثرة الضوء المادي لا تمنع تكاثر العتمة المعنوية.

قد يحمل المرء جهازاً يفتح له مكتبات العالم، ثم يعجز عن فتح صفحة واحدة من نفسه.

وقد يتابع أخبار القارات، ثم لا يعرف الخبر الأهم في قلبه: أنه يزداد قسوة. وقد يحفظ مواقف آلاف الناس، ثم لا ينتبه إلى موقفه الحقيقي من الله. وقد يملك جمهوراً يسمعه، ثم لا يملك لحظة يصغي فيها إلى ضميره.

المشكلة ليست نقصاً في البيانات، بل نقص في النور الذي يمنح البيانات معناها. فالمعلومة تخبرك بما وقع، أما الهداية فتريك أين تقف مما وقع. والمعلومة قد توسع قدرتك، أما القرآن فيسألك: فيمَ ستستخدم هذه القدرة؟ والمعلومة تزيد وسائل الإنسان، أما الوحي فيعيد بناء غاياته.

إن حضارة كاملة قد تعرف كيف تصل إلى النجم، ثم لا تعرف لماذا يتحول الإنسان في الأرض إلى وحش إذا خلا من التقوى. وقد نمتن تحليل مكونات الجسد، ثم تعجز عن صناعة ضمير يمنع اليد من الظلم حين تستطيع.

لا خصومة بين الوحي والعلم الصحيح؛ فالكون كتاب دلالة، والعلم سبيل إلى معرفة سننه. لكن العلم التجريبي يجيب عن أسئلة مجالة: كيف تتحرك الأشياء؟ كيف تكون؟ كيف نتعامل معها؟ أما سؤال الغاية، وسؤال الخير والشر، وسؤال الحساب والمصير، فلا تستقل المختبرات بالإجابة عنه.

لهذا يأتي النجم في السورة لا ليقدم درساً في الفلك، بل ليفتح درساً في الإنسان.

مشهد: مدينة لا ترى نجومها

عاد شاب من عمله في ساعة متأخرة، بعد يوم أمضاه في تحليل الأرقام ومتابعة الأسواق. كان يعرف تغير الأسعار في قارات بعيدة، ويتلقى إشعارات فورية عن كل هبوط وصعود. صعد إلى سطح المبنى هرباً من ضيق غرفته، ورفع عينيه، فلم ير إلا غلالة من الضوء الصناعي تخفي أكثر النجوم.

بحث طويلاً حتى لمح واحدة.

بدت ضعيفة في سماء المدينة، لكن الضعف لم يكن فيها؛ كان في الحجاب الذي صنعتته الأضواء القريبة. ولو ابتعد عن المدينة لرآها أوضح، ولرأى حولها ما لا يكاد يحصى.

وجفأة خطر له أن حياته تشبه تلك السماء: أضواء قريبة كثيرة تحجب نوراً أبعد وأبقى. أرقام اليوم، ومدح الناس، والمقارنات، والرغبة في الصعود، والخوف من التراجع؛ كلها تلعب قريباً حتى تمنعه من رؤية السؤال الكبير: إذا بلغت كل ما أريد، فمن أكون عند الله؟

هذه الخطرة ليست تفسيراً للآية، ولكنها إسقاط تربوي يحتمله معناها: قد تحجب الأنوار القريبة النور الهادي، لا لأنها أشد حقيقة، بل لأنها أقرب إلى العين.

وكم يحتاج الإنسان أن يبتعد قليلاً عن صخب ما يلعب حوله، كي يرى ما كان موجوداً طوال الوقت.

النجم لا يملك هدايته من ذاته

إن الله سبحانه هو خالق النجم وخالق ضوئه، وهو الذي جعله آية في السماء. فلا ينبغي أن ينتهي التأمل في المخلوق إلى الوقوف عند المخلوق، ولا أن تتحول الدهشة بالكون إلى ستار يحجب خالقه.

القرآن لا يلفت إلى السماء ليعبد الإنسان جمالها، ولا إلى النجم ليعلق به رجاءه، وإنما يوقظ بهما العقل إلى عظمة الخالق. فكل ضوء في المخلوقات مستعار، وكل جمال فيها موهوب، وكل نظام قائم بإرادته سبحانه.

وهذا هو الحد الفاصل بين التأمل الإيماني والانبهار المادي: الأول يعبر من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن النور إلى واهب النور؛ أما الثاني فقد يظل يدور حول المشهد حتى ينسى من أقامه.

إن النجم الثاقب عظيم، لكنه عبد مخلوق لا يملك لنفسه مداراً ولا بقاءً. وعظمته الحقيقية ليست في أن ينازع الخالق جلاله — تعالى الله عن ذلك — بل في أن يدل عليه.

كلما ازداد المخلوق في عينك إتقاناً، وجب أن يزداد خالقه في قلبك تعظيماً.

صدى الآية

ليس السؤال: هل في السماء نور؟ فهو ظاهر لكل عين ترفع رأسها.
السؤال: هل بلغ من ذلك النور شيء إلى قلبك؟

فقد يرى الإنسان النجم ولا يهتدي، وقد تتلو عليه الآية فتثقب في داخله ليلاً ظل يظنه بلا نهاية.

الفصل الثالث

الحارس الذي لا يغفل

بعد السماء والطارق، وبعد السؤال والبيان، تأتي الحقيقة التي أقيم القسم من أجل توكيدها:

﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

[سورة الطارق: 4]

هنا تنخفض العين من السماء إلى النفس. ينتهي تأمل البعيد ليبدأ اكتشاف القريب. لم يكن النجم هو القضية الأخيرة، بل كان شاهداً يمهّد لقضية الإنسان: لست متروكاً في هذا الوجود، وليست حياتك أرضاً سائبة، ولا أعمالك أوراقاً تتطاير في مهب النسيان.

إن على كل نفس حافظاً.

ولفظ كل يرفع أوهام الاستثناء. لا نفس كبيرة إلى حد تستغني عن الحفظ، ولا نفس صغيرة إلى حد تخرج من الحساب. لا ملك يرفعه سلطانه عن الإحصاء، ولا مجهول يضيعه خفاؤه، ولا صالح يستغني بصلاحه عن مراقبة قلبه، ولا مذنب يُغلق أمامه باب الرجوع ما دام في زمن العمل. كل نفس؛ في القصر والكوخ، في العلن والخفاء، في ساعة القوة ولحظة الانكسار. كل نفس عليها حافظ، وإن عاشت بين الناس كأن لا أحد يراها.

المعنى التفسيري

جواب القسم

هذه الآية هي - على قول جمهور المفسرين - جواب القسم الذي افتتحت به السورة. فالمعنى: والسماء والطارق، إن كل نفس لعلها حافظ؛ أو: ما كل نفس إلا عليها حافظ. والقراءتان المتواترتان في لفظ ﴿لَمَّا﴾، بالتخفيف والتشديد، تلتيان في تقرير المعنى العام: أن كل نفس عليها حافظ.

وفسر الطبري الحافظ بأنه من يحفظ على النفس عملها، ويحصى ما تكسب من خير أو شر، ونقل عن ابن عباس أن على كل نفس حفظة من الملائكة. وذكر السعدي أن الحفظ متعلق بالأعمال الصالحة والسيئة التي سيجازى الإنسان بها. تفسير الطبري

وذكر القرطبي أقوالاً أخرى في دائرة الحفظ، منها حفظ العمل والرزق والأجل، ومنها الحفظ من الآفات إلى أن يبلغ الإنسان ما قدره الله له. وهذه المعاني لا يلزم أن تكون متعارضة من كل وجه؛ فقد دلت نصوص قرآنية أخرى على وجود ملائكة يكتبون الأعمال، كما دلت على معقبات يحفظون الإنسان بأمر الله. لكن السياق هنا، بما يتلوه من النظر في الخلق ثم البعث وابتلاء السرائر، يقوي معنى مراقبة الأعمال وإحصائها استعداداً للجزاء. تفسير القرطبي

ولا يعني ذلك أن الله يحتاج إلى من يطلعه على أعمال عباده؛ فهو سبحانه العليم الذي لا يخفى عليه شيء. إنما الملائكة الحفظة جنود مأمورون، وكتابتهم للأعمال وإحصاؤها من مظاهر إحكام أمر الله وإقامة الحجة على العباد.

ومن الدقة هنا ألا نحصر لفظ الحفظ في العناية الدنيوية وحدها، فنحوّل الآية إلى وعد بأن المؤمن لن تصيبه مصيبة أو أذى؛ فالابتلاء واقع على المؤمنين وغيرهم، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا أشد الناس بلاءً. كما لا ينبغي أن نحصر أثر الآية في التهديد؛ لأن حفظ العمل يحمل معنى العدل، وفي العدل طمأنينة للمحسن كما فيه وعيد للمسيء.

فالآية تقول للظالم: لم يضع ما فعلت.

وتقول للمظلوم: لم يضع ما احتملت.

وتقول للمحسن الخفي: لم يضع إحسانك لأن الناس لم يروه.

وتقول للمذنب: لم يُنسَ ذنبك، ولكن باب التوبة مفتوح قبل يوم الحساب.

التأمل الأدبي

لست وحدك حين تخلو

يستطيع الإنسان أن يغلق بابه، وأن يسدل ستاره، وأن يحو سجّل بحثه، وأن يحذف رسالة كتبها، وأن يتحدث في مكان لا يراه فيه من يعرفه. يستطيع أن يخرج من مجال كاميرا، وأن يخفض صوته، وأن يتفق مع شريكه في الخطأ على الكتمان. لكنه لا يستطيع أن يصنع مكاناً خارج علم الله.

السّر في عالم البشر هو ما قلّ شهوده، أما في علم الله فلا سر.

وهنا تهز الآية وهماً عميقاً في النفس: أن الخلوة غياب عن الرقابة.

فإنسان لا يختبر صدقه كاملاً حين تراه العيون، بل حين تختفي؛ لأن وجود الناس قد يصنع سلوكاً لا يصنعه الضمير. قد يمنعه النجّل مما لا يمنعه الإيمان، وقد يدفعه طلب الثناء إلى خير لم يكن يريده لذاته، وقد يترك الخطأ خوفاً من انكسار صورته لا خوفاً من فساد قلبه.

لهذا كانت الخلوة مرآة قاسية، فيها ينفصل ما نفعله لله عما نفعله لنظـل
جميلين في أعين الناس.

لكن القرآن لا يترك الإنسان في الخلوة وحده:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

[سورة الطارق: 4]

إنها آية قادرة على أن تحول الجدار المغلق إلى نافذة على الآخرة. لا لأنها
تثبت في النفس فرع التجسس، بل لأنها تعيد إليها جلال المسؤولية. أنت
لست كائنًا تائهاً يفعل ما يشاء ثم تبتلع الأيام أثره؛ أنت مخلوق ذو أمانة،
وكل اختيار يصدر عنك يدخل في معنى وجودك.

ليس عملك حدثًا ينتهي بانتهاء لحظته؛ إنه يترك أثرًا في روحك، ويحفظ
في كتابك، ويلاقيك في مصيرك.

بين المراقبة البشرية والمراقبة الإيمانية

يعيش الإنسان المعاصر تحت أنواع كثيرة من الرصد: كاميرات في
الشوارع، وسجلات رقمية، وبيانات تجمعها المنصات، وتطبيقات تعرف موقعه
واهتماماته، ومؤسسات تقيس أداؤه، وجمهور يفتش في كلماته القديمة.
ومع ذلك لم تصنع هذه الرقابة إنسانًا أكثر نقاءً بالضرورة؛ لأنها تراقب
الظاهر حين يكون قابلاً للرصد، لكنها لا تبلغ النية ولا تملك تطهير القلب.

الرقابة البشرية تقول لك: تصرف جيداً ما دمت في مجال الرؤية.
أما المراقبة الإيمانية فتقول: كن صادقاً ولو لم يرك أحد من الناس.

والفارق بينهما هو الفارق بين تحسين الصورة وبناء الضمير.

من يخاف الكاميرا قد يكف عن المخالفة أمامها، ثم يعود إليها خارج مجالها. ومن يخشى انكشاف سمعته قد يترك خطأً، لا لأنه أبغض الخطأ، بل لأنه أبغض الفضيحة. أما من استقر في قلبه أن الله يراه، وأن عمله محفوظ، فإنه يبدأ رحلة أعمق: لا يطلب فقط مكاناً لا يُكشف فيه، بل يطلب قلباً لا يرغب في المعصية وإن أمن انكشافها.

وهذا المقام لا يُنال بادعاء لحظي، إنه تربية طويلة للنفس. فقد يعلم الإنسان أن الله يراه، ثم تغلبه شهوته أو غضبه أو عادته. والعلاج ليس أن يأس من إيمانه، وإنما أن يكرر العودة إلى معنى المراقبة، وأن يستعين بالله، وأن يتبعد عن أبواب الفتنة، وأن يتوب كلما عثر.

المراقبة ليست شعوراً بالكمال، بل يقظة تمنعك من المصالحة مع السقوط.

الحفظ الذي يردُّ للمنسين حقوقهم

في العالم أعمال عظيمة لا تلتفت إليها الأضواء. أم تسهر إلى جوار طفلها المريض، ثم يدخل الصباح ولا يعرف أحد كم مرة قاومت النوم. رجل يخفي صدقته حتى لا يبقى منها في ذاكرة الناس شيء. موظف يستطيع أن يمد يده إلى المال فلا يفعل، ولا يعلم بأمانته أحد؛ لأن الجريمة التي لم تقع لا يصنعون لها خبراً. شاب تغلق عليه الفتنة باباً، ثم يفتح نفسه ويخرج، ولا يصفق له جمهور. امرأة تسمع كلمة تؤذيها، فتمنع لسانها من ردٍّ أشد، ثم تمضي وكأن شيئاً لم يقع.

هذه الأعمال صغيرة في دفتر العالم؛ لأن العالم يرى النتائج الظاهرة، ولا يرى المعارك التي خيضت في الداخل. لكنه لا يوجد عند الله خير ضائع لأنه افتقد الشاهد البشري.

إن على كل نفس حافظاً.

يا لها من طمأنينة للمغمورين الذين لم تلتفت إليهم المنابر، وللصادقين الذين لم تحسن الكلمات وصف ما في قلوبهم، ولمن ابتلعوا آلامهم كيلا يثقلوا بها على سواهم، ولمن قاوموا الشر في نفوسهم ولم يعلم الناس أنهم خاضوا معركة أصلاً.

لا يحتاج العمل كي يبقى إلى ذاكرة الجمهور، يكفيه أن يكون محفوظاً عند الله.

وقد ينسى الإنسان نفسه بعض إحسانه، لا سيما ما فعله في أيام قديمة ثم عبر. لكنه سيجده في كتاب لا يسقط منه شيء. ورب عمل صغير أدي بقلب خالص صار في الميزان أثقل من عمل ملاً الأرض ضجيجاً، ورب كلمة حانية قيلت لمكسور في لحظة عابرة ظنها قائلها قد انتهت، لكنها بقيت عند الله، وبقي أثرها في نفس من تلقاها.

الآية لا تخاطب الخائف من الحساب وحده؛ إنها تسند ظهر المخلص الذي لم ير.

والحفظ يبدد غرور الظالم

في الجهة الأخرى يقف من ظن أن قدرته على إخفاء الجريمة تحوها. قد يملك المال الذي يشتري به الصمت، أو المنصب الذي يخيف به الشهود، أو

اللغة التي يقلب بها الأسماء: يسمي الظلم حزمًا، والخيانة مصلحة، والافتراء رواية أخرى، ونهب الضعيف حقًا من حقوق القوة.

وقد ينجح طويلاً في صناعة نسخة عامة من الحكاية، حتى يبدو المظلوم متهمًا والمتهم بطلاً. لكن نجاحه في تضليل الناس لا يغير حقيقة واحدة: العمل محفوظ.

ليس عدل الله محتاجاً إلى وثيقة نجا الجاني من توقيعها، ولا إلى تسجيل استطاع محوه، ولا إلى شاهد اشتراه أو أخافه. يعلم سبحانه الفعل، والقصد، والأثر، والوجه الذي أظهره الظالم، والوجه الذي أخفاه، والكلمة التي قالها في العلن، وما بيّته في قلبه وهو يقولها.

إن الإيمان بالحفظ لا يدعو المظلوم إلى ترك الأسباب المشروعة لاسترداد حقه، ولا إلى السكوت عن الفساد، ولكنه يحجبه من انهيار الروح إذا عجزت عدالة الأرض. يقول له: قد يتأخر الحكم هنا، وقد يضعف الدليل في أيدي الناس، لكن القضية لم تغلق في ميزان الله.

الحق الذي لا يجد محكمة في الأرض سيجد يوماً لا يحتاج فيه إلى غير علم الله وعدله.

الإسقاط التربوي المعاصر

الحياة المصنوعة للعرض

لم يعد كثير من الناس يعيشون الفعل وحده؛ إنهم يعيشون صورته التي سيعرضونها. قبل أن يتذوق أحدهم فرحته يسأل كيف سيصورها، وقبل أن ينجز عمله يفكر كيف سيخبر الناس به، وقبل أن يقدم معروفاً قد تهيأ في ذهنه العبارة التي سيكتبه بها.

ليس إظهار الخير محرماً بإطلاق؛ فقد تكون فيه قدوة وتشجيع، وقد تدعو إليه مصلحة صحيحة. لكن الخطر يبدأ حين يصبح نظر الناس هو القوة التي تمنح العمل قيمته، وحين تضعف الرغبة في الخير كلها غاب الجمهور. وهنا تسأل الآية القلب:

لو لم يعرف أحد، هل كنت ستفعل؟
ولو نُسب فضلك إلى غيرك، هل يبقى فيك الرضا؟
ولو شكرك الناس ولم يقبل الله، ماذا نفعلك شكرهم؟
ولو لم يشكرك الناس وقبل الله، ماذا أضرك صمتهم؟
هذه الأسئلة ليست محاكمة نهائية للنيات؛ فالنية دقيقة، وقد تختلط فيها الدوافع، والمؤمن يجاهدها ولا يزكي نفسه. لكنها أسئلة تنظيف، تعيد العمل من ساحة العرض إلى مقام العبودية.
إن النفس التي تعلم أن عليها حافظاً تتحرر تدريجياً من جوعها إلى الشهود. لا تعود مضطرة إلى أن تخبر العالم بكل خير فعلته، ولا إلى أن تدافع عن نقائها في كل مجلس، ولا إلى أن تطارد من أساء فهمها لتصلح صورتها في عينه.

يكفيها أن تكون حقيقتها عند الله خيراً من صورتها عند الناس.

مشهد: الرسالة التي لم يرسلها

جلس رجل في آخر الليل يكتب رسالة غاضبة إلى من أساء إليه. كان يستطيع بجملة واحدة أن يهدم سمعته؛ ففي يده سر قديم، ومعلومة صحيحة، لكنه يعرف أن نشرها لن يكون دفاعاً عن الحق بقدر ما سيكون انتقاماً لكرامته المجروحة.

كتب الرسالة، وراجعها، ورأى كم ستكون مؤلمة. تخيل إعجاب من يوافقونه، وتراجع خصمه أمام الجمهور، وشعر بلذة قصيرة تسبق الإرسال.

لم يكن في الغرفة أحد.

وكان يستطيع في الصباح أن يبرر ما فعل: لقد قلت الحقيقة فقط. لكن الحقيقة قد تُستخدم ظلماً إذا أُريد بها التشهير لا الإصلاح، وإذا تجاوز كشفها قدر الحاجة، وإذا كان باعثها شهوة الإيذاء.

مرّت الآية في قلبه:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

[سورة الطارق: 4]

لم يكن السؤال: هل سيعرف الناس دافعي؟ بل: إن أخفيته عن الناس، أيخفي عن الله؟

حذف الرسالة.

لم يشعر بانتصار كامل؛ بقيت الإساءة تؤلمه، وبقي في نفسه شيء يتنى الرد. لكنه أدرك أن المجاهدة لا تعني اختفاء الرغبة الخاطئة، بل أن تمنعها من قيادة يدك.

وفي الصباح لم يعرف أحد المعركة التي خاضها. لم يشكره أحد على رسالة لم تصل، ولم يكتب اسمه في قائمة الحليمين، لكنه خرج من الليل بأثر لا يضيع.

ليس هذا المشهد تفسيراً خاصاً للآية، بل مثال تربوي على أثر الإيمان بأن النيات والأعمال محفوظة: أن تتغير قرارات الإنسان حين ينصرف الشهود ويبقى علم الله.

من الخوف إلى الأُنس

قد يفهم بعض الناس المراقبة الإلهية فهماً يملأ القلب رعباً مجرداً، حتى يظن أن علاقته بالله قائمة فقط على انتظار الزلة والعقوبة. وهذا فهم ناقص؛ لأن الله سبحانه هو الرقيب العليم، وهو أيضاً الرحمن الرحيم، الذي شرع التوبة، ويقبل رجوع عبده، ويضاعف الحسنات، ولا يظلم مثقال ذرة. الحفظ ليس كميناً منصوباً للإنسان، بل نظام عدل كامل.

نعم، في الآية رهبة؛ لأن الذنب لا يضيع بالتناسي. لكن فيها رجاء أيضاً؛ لأن التوبة لا تضيع، والحسنة لا تضيع، والصبر لا يضيع، والخوف الذي منعك لا يضيع، والندم الذي أعادك لا يضيع.

بل إن إدراك المراقبة قد ينتقل بالموثق من الخوف إلى الأُنس. ففي أول الطريق يقول: الله يراني، فيستحي أن يعصيه. ثم يقول في ساعات الألم: الله يراني، فيطمئن أنه ليس منسياً. ويقول في العمل الخفي: الله يراني، فلا يحتاج إلى تصفيق. ويقول حين يُساء فهمه: الله يعلم حقيقتي، فلا يبدد عمره في ترميم صورته عند كل أحد.

العبارة واحدة، لكن أثرها يتسع:

الله يراني حين تهم النفس بالخطأ: مراقبة.

الله يراني حين أُظلم: عزاء.

الله يراني حين أحسن سرّاً: إخلاص.

الله يراني حين أنكسر: أنس.

الله يراني حين أتوب: رجاء.

وهكذا لا يصير الحافظ في شعور المؤمن عيناً يخافها وحدها، بل حقيقة يعيش في ظل عدلها ورحمتها.

• ما الذي يستحق أن يُحفظ؟

إذا كان العمل محفوظاً، فالسؤال الذي يلي ذلك طبيعي: ماذا نريد أن نلقى؟

الإنسان يقضي جانباً كبيراً من حياته في حفظ ما سيركه: يحفظ الصور، والرسائل، والوثائق، والأسماء، والذكريات. يخشى أن يفقد ملفاً، أو أن تحي صورة، أو أن يضيع تاريخ محادثة قديمة. ومع أن في حفظ الذكريات معنى إنسانياً مشروعاً، فإن السورة تلفته إلى السجل الأبعد: لست أنت وحدك من يحفظ، ثمة ما يُحفظ عليك.

ما تظنه أنت لحظةً عابرة قد يدخل في كتاب العمر.

نظرة لم تقاومها.

كلمة أطلقتها ثم نسيها وبقي جرحها.

حق آخرته لأن صاحبه ضعيف.

صدق قلته وكلفك خسارة.

رحمة أخفيتها.

توبة قاومت بها نفسك.

دعاء خرج منك في انكسار لم يسمعه بشر.

حياتك لا تُكتب بالأحداث الكبيرة وحدها. إن جانباً عظيماً منها يتكون من اختيارات صغيرة تكررت حتى صارت قلباً، ثم صارت مصيراً. وقد لا يستطيع الإنسان أن يجعل كل يوم حافلاً بإنجاز ظاهر، لكنه يستطيع أن يجعل فيه شيئاً يستحق أن يُحفظ: نيةٌ صالحة، وأذى كفه، وواجباً أداه، واستغفاراً صدق فيه، وقلباً جبره، وآية وقف عندها حتى غيرت موضعاً في نفسه.

الحافظ وبداية المحاسبة

إذا علم الإنسان أن عمله محفوظ، صار الأليق به ألا ينتظر ظهور الكتاب في الآخرة كي يعرف ما كتب فيه. يبدأ في الدنيا بمحاسبة نفسه، لا محاسبة مرضية تحوّل كل خاطر إلى ذنب، ولا جلدًا للنفس يقطعها عن الرجاء، بل مراجعة صادقة تحفظ اتجاه الطريق.

في آخر اليوم يستطيع أن يسأل:

أين كنت صادقاً؟

وأين زينت الدافع لنفسِي؟

من أخذت ما ليس لي؟

من كسرت بكلمة؟

متى غلبت غضبي؟

متى نصرت حقاً لا حظ لي فيه؟

ما الذنب الذي يجب أن أتوب منه الآن قبل أن يصير عادة؟

وما الخير الذي ينبغي أن أحمد الله عليه كيلا أنسبه إلى نفسي؟

هذه المحاسبة ليست بديلاً عن رحمة الله، بل إحدى ثمار الإيمان بها؛ لأن من عرف أن باب التوبة مفتوح امتلك شجاعة الاعتراف، أما من ظن أنه لا يُقبل فقد يهرب من مواجهة نفسه.

إن أخطر الذنوب ليس الذنب الذي أبكك، بل الذنب الذي أعدت تسميته حتى لم تعد تراه ذنباً.

والحافظ لا يخدعه الاسم الذي اخترعناه.

صدى الآية

حين تنطفئ عيون الناس لا تنطفئ حقيقة العمل. وكل ما فعلته في الخفاء يمضي أمامك إلى يوم اللقاء: ذنباً يحتاج إلى توبة، أو خيراً ينتظر جزاءه.

فلا تبحث عن مكان لا يراك فيه أحد؛ ابحث عن قلب يستحي من الله إذا خلا، ويأنس به إذا أوحشه الخلق.

الفصل الرابع

حين ينظر الإنسان إلى بدايته

بعد أن رفعت السورة عين الإنسان إلى السماء، وأوقفته أمام النجم الثاقب، وأخبرته أن كل نفس عليها حافظ، أعادته فجأة إلى نقطة لا يحب غروره أن يقف عندها طويلاً: إلى بدايته الأولى.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾

[سورة الطارق: 5]

إنه أمر بالنظر، لكن المرأة هذه المرة ليست معلقة أمام وجه الإنسان، بل موضوعة خلف وجوده. لا تطلب منه أن يرى صورته التي اكتملت، وإنما أن ينظر إلى المادة التي بدأ منها قبل أن يكون له وجه واسم ونسب وصوت ومكان بين الناس.

كأن السورة تقول له: قبل أن تسأل أين بلغت، اسأل من أين بدأت.

فالإنسان شديد الوله بنهاياته الظاهرة: بما جمعه، وبما حققه، وبالمكان الذي وصل إليه، وبالألقاب التي التصقت باسمه. أما القرآن فيأخذه إلى ما قبل الألقاب كلها؛ إلى اللحظة التي لم يكن فيها غنياً ولا فقيراً، سيداً ولا تابعاً، عالماً ولا جاهلاً، مشهوراً ولا منسياً. كان أصلاً صغيراً لا يحمل في ذاته صورة ما سيصير إليه.

ومن تلك البداية المتواضعة أنشأ الله عيناً تبصر السماء، وعقلاً يتدبر، ولساناً يجادل، وقلباً يحب ويخاف، وإنساناً قد يطغى حتى ينسى مم خلق.

المعنى التفسيري

نظر الاعتبار لا نظر العين وحدها

الفاء في قوله تعالى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾

تصل ما بعدها بما قبلها. فإذا كانت كل نفس عليها حافظ، وإذا كان الإنسان سيجازى بما حفظ عليه، فليتأمل أصل خلقه؛ لأن في البداية دليلاً على قدرة الله على الإعادة، وفيها ما يكسر استبعاد البعث، وما يردُّ غرور الإنسان إلى حده.

وليس النظر هنا مجرد رؤية حسية؛ فالإنسان لا يشاهد بداية خلقه بعينه، وإنما المراد نظر التفكير والاعتبار: أن يستحضر أصل وجوده، ويستدل به على القدرة التي أنشأته.

وقد نلخص ابن كثير مقصد الآيات بأنها تنبيه للإنسان إلى ضعف أصله، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البدأة قادر على الإعادة. تفسير ابن كثير لسورة الطارق

ثم جاء الجواب:

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾

[سورة الطارق: 6]

أي خُلق من ماء ذي دفق، وهو ماء النطفة الذي يكون منه التناسل بإذن الله. ووصف الماء بأنه دافق يتضمن معنى الاندفاع والخروج بقوة. وقد حمله جمهور المفسرين على الماء الذي يتكون منه الإنسان. ثم قال تعالى:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾

[سورة الطارق: 7]

الصلب في أصل اللغة عظام الظهر، والترائب جمع تريبة، وقد ذكر اللغويون والمفسرون في تحديدها أقوالاً متقاربة ومتعددة، أشهرها أنها عظام أعلى الصدر وموضع القلادة وما بين الترقوتين والثديين. ووقع خلاف في عود الوصف وتفصيل المراد: فذهب كثير من المتقدمين إلى صلب الرجل وترائب المرأة، وذكرت أقوال أخرى أن الوصف متعلق ببدن الإنسان أو بمسار خروج الماء من بين هذه المواضع. وقد عرض الطبري طائفة من هذه الأقوال، وذكر ابن كثير القول بصلب الرجل وترائب المرأة، بينما قرر ابن عاشور أن الترائب تستعمل للرجل والمرأة، وإن كثر ورودها في وصف النساء. تفسير الطبري، تفسير ابن كثير، التحرير والتنوير

والأمانة تقتضي ألا نجعل أحد التفصيلات المختلف فيها معنى قطعياً لا يحتمل سواه، وألا نستدعي تفسيراً طيباً متكلفاً لنجعل الآية تقريراً لاصطلاحات علم الأجنة الحديثة. المقصد الظاهر المحكم أن الإنسان خُلق من ماء مهين يخرج من جسد أبيه بأمر الله، وأن الذي دبر بدءه على هذا النحو قادر على إعادته.

فالأيات آيات بعث واعتبار قبل أن تكون مجالاً لخصومة علمية مفتعلة.

التأمل الأدبي

المرأة التي لا تجامل

للإنسان مزايا كثيرة يرى فيها ما صار إليه، لكن القرآن يمنحه مرآة يرى فيها ما كانه.

ينظر في مرآة الناس، فيرى منزلته.
وينظر في مرآة المال، فيرى قدرته.
وينظر في مرآة الشهرة، فيرى اتساع اسمه.
وينظر في مرآة الإنجاز، فيرى المسافة التي قطعها.
ثم يضع القرآن أمامه مرآة الأصل:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾

[سورة الطارق: 5]

فيتهاوى كثير من الزينة التي أقنع نفسه بأنها جوهره.
لم يقل: فلينظر الكافر، ولا فلينظر المتكبر، بل قال: الإنسان؛ لأن الحاجة إلى تذكر الأصل لا تخص فئة بعينها. في كل إنسان قابلية لأن ينسى البداية حين تعجبه صورته النهائية، وأن ينسب إلى نفسه ما أقامه الله فيه، وأن يتعامل مع النعمة كما لو كانت حقاً ذاتياً لم يسبقها عجز ولم يمددها فضل.
حتى العابد يحتاج إلى أن يتذكر مم خلق؛ لئلا يتكبر بعبادته.
والعالم يحتاج إلى ذلك؛ لئلا يظن أن العلم نشأ فيه بذاته.
وصاحب البلاء يحتاج إليه؛ لا لإذلاله، بل ليعلم أن من أنشأه أول مرة

قادر على أن يفتح له من التحول ما لا يحسب.
وصاحب القوة يحتاج إليه؛ كيلا يحتقر من لم يُمنح ما مُنح.
كلنا جثنا من الباب نفسه، ثم اختلفت بنا الغرف والأسماء والثياب.

من ماء إلى معنى

ليس موضع الدهشة أن الإنسان خلق من ماء فحسب، بل أن الله
أخرج من ذلك الماء كائناً يحمل عالماً داخلياً بهذه السعة.
من قطرة لا تعقل خرج عقل يسأل عن أصل الكون.
ومن مادة لا تنطق خرج لسان يكتب الشعر ويقيم الحجة ويوح بالحب.
ومن بداية لا ترى خرجت عين تحديق في النجم الثاقب.
ومن أصل متشابه خرجت وجوه لا يكاد يتطابق منها وجهان، وأرواح لها
حكاياتها، وقلوب تحمل ما لا يتكرر تماماً في قلب آخر.
لقد نقل الله الإنسان من بساطة المادة إلى تعقيد الشعور، ومن غياب
الصورة إلى تمام الخلقة، ومن العجز المطلق إلى قدرة محدودة يستطيع بها أن
يبني ويهدم، ويرحم ويظلم، ويصدق ويكذب.
وهنا ينبغي ألا يؤدي تذكر الأصل إلى احتقار الإنسان؛ فالقرآن الذي
يذكره بالماء الدافق هو الذي قرر تكريم بني آدم. ليست البداية المتواضعة نفيًا
للكرامة، بل بياناً لأن الكرامة هبة لا ملك ذاتي. أنت كريم بما كرمك الله،
لا لأن المادة الأولى فيك تستحق بذاتها هذا المقام.
والتواضع الصحيح لا يقول للإنسان: أنت لا شيء فلا قيمة لك. بل
يقول: لم تكن شيئاً مستقلاً، ثم أنشأك الله وكرمك؛ فلا تجعل الهبة حجة على
الواهب، ولا تجعل الكرامة باباً إلى الكبر على عباده.

إن الذي يعرف ضلالة أصله وعظمة التكريم معاً يكون أقرب إلى التوازن:
لا يحتقر نفسه، ولا يؤهلها.

السؤال الذي يهدم النسب المصنوع

يولد الناس من أصل بشري واحد، ثم يقيمون بينهم أسواراً من الأسماء والأنساب والألوان والطبقات. ينسى أحدهم ماء البداية، ثم يتصرف كأن دمه صُنع من مادة أنقى من دم غيره. يحتقر عاملاً، أو يزدرى فقيراً، أو يرى لنفسه فضلاً فطرياً على إنسان لم يختار أرضه ولا لونه ولا أسرته.

فيأتي القرآن ولا يسأل: من أي قبيلة أنت؟ ولا: في أي بيت وُلدت؟
بل يسأل:

﴿مِمَّ خُلِقَ﴾

إنه سؤال يرد الجميع إلى المساواة في الافتقار. قبل أن تتفاوت الأرصدة، كانت البداية واحدة في ضعفها. وقبل أن تتسع الأنساب، كان كل إنسان محتاجاً إلى أن يحمله رحم، وتغذيه أم، وتحرسه عناية الله في أطوار لا يملك منها شيئاً.

لا أحد صنع بدايته.

لا أحد اختار وجهه.

لا أحد خطط لأول خلية من جسده.

لا أحد أشرف على انتقاله من طور إلى طور.

ولا أحد ضمن لنفسه أن يخرج إلى الدنيا حياً.

فمن أين يأتي الغرور؟

إن أعظم ما يفضحه تذكر الخلق الأول هو ادعاء الاستقلال؛ لأن الإنسان في أول قصته لم يكن قادراً حتى على أن يريد. سبقت رحمة الله إرادته، وسبق تدبير الله وعيه، وسبقت النعمة قدرته على الشكر.

وما يزال الإنسان — وإن كبر — محمولاً بذلك التدبير، لكنه اعتاد النعمة حتى تخيل أنه يحمل نفسه.

الإسقاط التربوي المعاصر

الإنسان بوصفه مشروعاً ذاتياً

تشيع في ثقافة العصر عبارات توهم الإنسان أنه صنع نفسه بالكامل: أنا بنيت ذاتي، وأنا خلقت فرصتي، وأنا لم يمنحني أحد شيئاً. وفي هذه العبارات جانب صحيح إذا أريد بها الاجتهاد، وتحمل المسؤولية، وعدم الاستسلام. لكن الخطأ يبدأ حين تحو شبكة النعم التي جعلت الاجتهاد ممكناً.

من أعطاك الجسد الذي اجتهدت به؟

ومن منحك العقل الذي خططت به؟

ومن أبقاك حياً في الحوادث التي عبرتها؟

ومن سخر لك من علمك، ولو بحرف؟

ومن جعل في الأرض أسباباً تستجيب لسعيك؟

ومن حماك في طفولتك حتى بلغت سن القدرة؟

لا ينفي الإيمان جهد الإنسان، لكنه يضعه في موضعه. أنت سعت حقاً، لكنك سعت بقدرة لم تنشئها. واخترت، لكنك اخترت داخل عالم

لم تخلقه. ونجحت، لكن آلاف الشروط التي قام عليها نجاحك لم تكن تحت سلطانك.

إن عبارة «صنعت نفسي» تنهار أمام أول آية في السيرة الجسدية:

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾

[سورة الطارق: 6]

أنت لم تصنع نفسك؛ لقد خلقتك الله، ثم منحك أسباباً لتبني جانباً من حياتك، وجعلك مسؤولاً عن كيفية استعمال ما وهبك. والفرق بين العبارتين هو الفرق بين الشكر والغرور.

حين يتحول الأصل إلى حجة أخلاقية

لا يذكر القرآن أصل الإنسان لمجرد تقديم معلومة عن التكوين، بل ليبيّن عليها موقفاً. فإذا كنت قد بدأت ضعيفاً، فلماذا تقسو على الضعيف؟ وإذا حملتك العناية في أطوار عجزك، فلماذا تنكر لمن يحتاج إلى عنايتك؟ وإذا لم تصنع جمالك ولا ذكائك ولا قدرتك، فلماذا تجعل العطية سلاحاً لاحتقار من لم يعط مثلها؟

تذكر البداية ينبغي أن يظهر في طريقة حديثك مع الناس.

في نبرة صوتك مع العامل البسيط.

في صبرك على الشيخ الذي أثقلته السنون.

في رحمتك بالطفل الذي لا يحسن التعبير.

في امتناعك عن السخرية من هيئة لم يخترها صاحبها.

في تواضعك حين تجلس مع من لا يملك شيئاً يزيد مكانتك الاجتماعية.

فالإنسان الذي عرف مم خُلق، ثم بقي متكبراً، لم ينظر كما أمرته الآية؛
ربما عرف المعلومة، لكنه لم يبلغ الاعتبار.

النظر القرآني ليس حركة عقل تنتهي إلى تعريف، بل رؤية تنتهي إلى
خُلُق.

مشهد: الرجل الذي ينتظر الإذن

دخل رجل ذو منصب إلى مؤسسة كبيرة، فتجاوز الواقفين عند الباب
كأن الطريق خُلق له. حاول الحارس أن يسأله عن بطاقته، فاستدار إليه
بنفاد صبر، وقال له ما معناه: ألا تعرف من أنا؟

كان السؤال في ظاهره طلباً للتعريف، لكنه في باطنه إعلان عن طبقة
يتوهم صاحبها أنها تعفيه من النظام. وقف الحارس صامتاً؛ فهو يعرف أن
رداً واحداً قد يكلفه رزقه.

لو مر في قلب الرجل آنذاك سؤال السورة:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾

[سورة الطارق: 5]

لتغير معنى سؤاله: ألا تعرف من أنا؟

من هو؟ إنسان خُلق كما خُلق الحارس، وكان رضيعاً لا يملك دفع
الجوع عن نفسه، وسيمر به الضعف إن امتد عمره، وسيخرج من الدنيا كما
يخرج من لا منصب له. أما المنصب فتوب مؤقت، لا يغير مادة البداية ولا
حقيقة النهاية.

وليس المقصود محو الفروق الوظيفية أو إلغاء المسؤوليات، بل منع الوظيفة من أن تسرب إلى جوهر الإنسان فتقنعه بأنه نوع آخر من البشر. ما أكثر الذين يرتدون مناصبهم حتى لا يبقى تحت الثوب إنسان.

لا تستعمل الأصل لإهانة المخلوق

قد يسيء بعض الوعاظ استعمال معنى البداية، فيذكرون أصل الإنسان بعبارات تقصد تحقيره وكسر كرامته، كأن المطلوب أن يزدري المرء نفسه. وهذا لا يستقيم مع التوازن القرآني؛ فالإنسان مخلوق من ماء، لكنه مكرم ومكلف، ونُفخ فيه من الروح التي خلقها الله، وسُخرت له أشياء في الكون، وأرسل الله إليه الرسل، وجعل أهلاً لحمل الأمانة.

التذكير بالأصل علاج للكبر، لا إلغاء للكرامة.

ثمة فرق بين أن تقول للإنسان: أنت لم تخلق نفسك، فتواضع لله؛ وبين أن تقول له: أنت حقير لا قيمة لك. الأولى عبودية، والثانية قد تنتهي إلى اليأس وإهدار المسؤولية.

ولو كان الإنسان بلا قيمة لما خطب، ولا كُلف، ولا حُفظ عمله، ولا بُعث للحساب. إن خطورة أفعاله دليل على خطورة أمانته، والحساب شاهد على أنه ليس كائنًا مهملاً.

السورة لا تصغر الإنسان لتسحقه، بل تصغر غروره لتتقذ إنسانيته.

البداية التي لم نرها والنهاية التي نستبعد

لم يشاهد أحد منا نفسه وهو ينتقل من النطفة إلى أطوار الخلق الأولى.
عرفنا ذلك بالخبر والملاحظة في غيرنا وبآثار القدرة. ومع هذا لا يشك
الإنسان في أنه بدأ على نحو لم يكن حاضر الوعي فيه.

فلماذا يجعل غياب مشاهدته للبعث حجة على استحالة؟

إن الذي أخرجه أول مرة من غيب لم يعهده، قادر على أن يخرج مرة
أخرى من قبر لا يملك فيه وعياً ولا حركة. بل إن بداية الإنسان نفسها
برهان ملازم له؛ يحمل في جسده دليل القدرة التي ينكر بعض الناس تمامها.

كل عظم فيك شاهد أنك لم تصنعه.

كل نبضة قلب سبقت وعيك شاهد.

كل خلية قامت بوظيفتها دون إذن منك شاهد.

كل انتقال من طفولة إلى شباب ثم إلى كهولة شاهد أن جسدك يجري عليه
تدبير أكبر من إرادتك.

ولذلك لا ينتهي السؤال عند الماء الدافق، بل يمهّد للخبر العظيم:

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾

[سورة الطارق: 8]

فالبداية ليست ذكرى جسدية، بل حجة على المستقبل.

صدى الآية

كلما أغراك ما صرت إليه، عد قليلاً إلى ما بدأت منه؛ لا تحتقر
نفسك، بل لتعرف من رفعها، ولا لتزهد في كرامتك، بل لتردها إلى واهبها.
من عرف أنه مخلوق، نجا من الوهم الأثقل: أن يعيش كأنه خلق
نفسه.

الفصل الخامس

البدء شاهدٌ على الرجوع

يقف الإنسان أمام الموت كما لو أنه حادث لم يشهد الكون شيئاً له. يرى الجسد الذي كان يتحرك قد سكن، والصوت الذي كان يملأ المكان قد انقطع، والوجه الذي كان يبادلُه النظر قد صار وراء حجاب لا تخترقه النداءات. عندئذ يبدو البعث للعقل المحصور في التجربة اليومية أمراً بعيداً، فهو لم يرميتاً ينهض من قبره، ولم يشاهد يوم القيامة.

لكن السورة لا تطلب منه أن يؤمن بلا دليل، بل ترده إلى الدليل الذي يحمله في نفسه:

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾

[سورة الطارق: 6]

ثم تقرّر:

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾

[سورة الطارق: 8]

الذي أنشأ قادر على أن يعيده. والذي أخرج الإنسان من بداية لا صورة فيها، لا يعجزه أن يخرجَه بعدما كانت له صورة. ليست الإعادة مواجهة بين قدرة الله وشيء مستقل عنها؛ فالمادة كلها خلقه، والقوانين خلقه، والإنسان نفسه لم يخرج لحظةً من ملكه.

الموت نهاية في حساب المخلوق، لكنه ليس نهاية في سلطان الخالق.

المعنى التفسيري

مرجع الضمير في ﴿رَجَعَهُ﴾

اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾

[سورة الطارق: 8]

فقيل: الضمير يعود إلى الماء الدافق، والمعنى أن الله قادر على رده إلى موضعه، أو حبسه فلا يخرج. وقيل: يعود إلى الإنسان، أي إن الله قادر على رده إلى حاله الأولى، أو رده حياً بعد موته.

وقد رجح الطبري أن المعنى: إن الله قادر على رد الإنسان بعد موته حياً كما كان، مستنداً بالسياق، ولا سيما بما يتلو الآية:

﴿يَوْمَ تَتْلَى السَّرَائِرُ﴾

[سورة الطارق: 9]

فذكر اليوم الذي تُختبر فيه السرائر ويقع فيه الحساب يناسب حمل الرجوع على البعث والإحياء بعد الموت. وذهب ابن كثير كذلك إلى أن الآيات ترشد إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداية قادر على الإعادة. تفسير الطبري، تفسير ابن كثير

ولا ينبغي إخفاء الأقوال الأخرى؛ فهي مروية في كتب التفسير. لكن سياق السورة العام — من حفظ الأعمال إلى ابتلاء السرائر ونفي القوة

والناصر — يجعل معنى البعث والرجوع للحساب هو الأظهر في انتظام المقطع.

والآية لا تقول إن الإعادة تحتاج إلى معالجة شاقة أو زمن طويل؛ إنها تثبت القدرة الإلهية بصيغة مؤكدة:

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾

فالخبر متعلق بقدرة الله المطلقة، لا بالمقاييس التي يحاكم بها الإنسان قدرته المحدودة.

التأمل الأدبي

• لماذا يستبعد الإنسان العودة؟

يستبعد الإنسان البعث لأنه يقيس قدرة الله على قدرته. يرى العظام وقد تفرقت، والأجساد وقد تحللت، والأجيال وقد انقضت، فيتساءل: كيف تجتمع؟ وكيف تعود؟ وهو سؤال ينشأ من النظر إلى صعوبة الفعل في ميزان المخلوق، لا من النظر إلى هوية الفاعل.

لو كان الإنسان هو الذي سيعيد الخلق، لكان السؤال عن الكيفية لازماً؛ لأنه عاجز محدود، يحتاج إلى المادة والآلة والزمن والمعرفة. أما حين يكون الفاعل هو الذي خلق المادة والآلة والزمن والعقل الذي يسأل، فإن قياس فعله على عجزنا خطأ في أصل التصور.

إن الطفل قد يرى بناءً عظيماً فيستبعد أن يكون البشر قد بنوه؛ لأنه يقيس قدرتهم إلى قدرته الصغيرة. وكلما اتسعت معرفته عرف أن ما يعجز عنه فرد قد تقدر عليه جماعات وأدوات وعلوم. فإذا كان تفاوت القدرة

بين المخلوقات يجعل المستبعد ممكناً، فكيف تُقاس قدرة الخالق الذي ليس كمثله شيء بحدود مخلوقاته؟

ليس الإيمان بالبعث قفزة خارج العقل، بل تصحيح لموضع القياس: لا تنظر إلى تفرق الأجزاء وحده، بل انظر إلى القادر الذي أنشأها أول مرة.

أنت دليل القضية

في كثير من القضايا يبحث الإنسان عن دليل خارج نفسه؛ كتاب يقرأه، أو أثر يراه، أو تجربة يعيدها. أما في قضية البعث فإن جسده جزء من الدليل.

وجودك الحالي أمر أعجب - في حساب المادة المجردة - من رجوعك. لقد كنت معدوم الصورة، لا يداً ولا عيناً ولا قلباً ولا ذاكرة، ثم خلقك الله. أما عند الإعادة فقد سبق أن كنت معلوم الخلقة عنده سبحانه، وهو العليم الذي لا يضل ولا ينسى.

لا يعني هذا أن شيئاً يكون على الله أيسر من شيء بمعنى المشقة؛ فقدوته سبحانه لا يلحقها عجز ولا تعب. وإنما يُخاطب الإنسان بما يقرب المعنى إلى عقله: من سلم بالخلق الأول لم يملك حجة عقلية لإنكار الإعادة.

والمفارقة أن الإنسان يصدق كل يوم صوراً من العودة في العالم، ثم يستبعد عودته هو. يرى الأرض تموت في موسم ثم تحيا، ويرى النوم يسلبه وعيه ثم يستيقظ، ويرى الخلايا تتبدل، ويرى الشجرة الكاملة تخرج من بذرة صغيرة؛ لكنه حين يصل إلى القبر يتصرف كأن القدرة التي ملأت الكون بالحياة توقفت عند حافته.

السورة تفتح القبر من جهة البداية: انظر مم خلقت، تعرف أن النهاية ليست نهاية.

الرجوع ليس إلى الحياة وحدها

لو كان البعث رجوعاً إلى الحياة فحسب، لبقى السؤال: ثم ماذا؟ لكن السياق يجيب:

﴿يَوْمَ تَلَى السَّرَِيرُ﴾

[سورة الطارق: 9]

فالرجوع رجوع للحساب، لا مجرد استعادة للأجساد. يعود الإنسان ومعه قصته الأخلاقية؛ معه ما آمن به، وما نواه، وما عمله، وما أخفاه، وما أعلنه. لا يرجع جسداً فارغاً من تاريخه، بل نفساً تلقى ما حفظ عليها. وهنا يصبح الإيمان بالبعث أكثر من قضية عقيدة يثبتها الذهن؛ يصير قوة تعيد ترتيب اليوم. فمن علم أنه راجع لم يسأل عند كل فعل: هل أستطيع الإفلات الآن؟ بل سأل: كيف ألقى هذا الفعل حين يرجع إليّ؟ البعث يجعل الزمن دائرة أخلاقية: ما تزرعه يعود، وما ترسله أمامك تلقاه، وما تظنه انتهى لأنه خرج من يدك ينتظرك في موضع آخر.

نحن لا نترك أعمالنا خلفنا؛ نحن نرسلها إلى موعدها.

الإسقاط التربوي المعاصر

ثقافة النهاية القريبة

يعيش كثير من الناس داخل أفق قصير: نهاية الشهر، نهاية المشروع، نهاية الانتخابات، نهاية الخصومة، نهاية العمر الوظيفي. يخططون بدقة لما سيحدث بعد عام، ويؤمنون حياتهم لما بعد التقاعد، ويحفظون لأبنائهم ما يكفيهم بعد الرحيل، لكنهم قد لا يتركون في الخطوة موضعاً لما بعد الموت. ليست المشكلة في التخطيط للدينا؛ فهو من أخذ الأسباب، وقد يكون مسؤولية وعبادة إذا صلحت النية. المشكلة أن يصبح الموت آخر سطر في تصور الإنسان، وكأن كل ما بعده فراغ لا يستحق الاستعداد.

الإيمان بالرجوع لا يفسد عمارة الأرض، بل يصحح غايتها. يجعل المهندس يسأل عن أمانة البناء، والتاجر عن عدل الربح، والكاتب عن صدق الكلمة، والحاكم عن الدم الذي يحفظه أو يريقه، والعالم عن أثر معرفته، والأب عن قلب الطفل الذي يربيه.

من دون الرجوع قد يتحول النجاح إلى القدرة على أخذ أكبر نصيب قبل النهاية. أما مع الإيمان بالرجوع، فيصبح النجاح أن تبلغ النهاية ولم تخن الأمانة التي مرّت بين يديك.

إن الفرق بين من يرى الموت إغلاًقاً نهائياً، ومن يراه باباً إلى الحساب، يظهر في التفاصيل قبل المواقف الكبرى: في المال الذي يستطيع أخذه دون أن يُكشَف، وفي الاعتذار الذي يرفضه كبرياؤه، وفي الشهادة التي قد تكلفه، وفي حق ضعيف لا يملك وسيلة للانتقام.

الآخرة لا تبدأ بعد الموت في أثرها التربوي، إنها تبدأ يوم تدخل حسابك قبل كل اختيار.

الرجوع الذي يحرق الحاضر

قد يتوهم بعض الناس أن كثرة التفكير في الآخرة تجعل الإنسان منقطعاً عن الحياة، كثيلاً لا يرى جمالها. لكن الإيمان الصحيح بالرجوع يحرق الحياة من عبثها، ويمنح الأشياء قيمتها النسبية.

إذا كانت الدنيا كل شيء، صارت كل خسارة كارثة مطلقة. وكل تأخر هزيمة نهائية.

وكل مرض سرقة لا تعويض لها.
وكل ظلم نجح صاحبه فيه انتصاراً كاملاً.
وكل لذة فاتت حرماناً أبدياً.

أما إذا كان ثم رجوع، فليست هذه الصفحة الكتاب كله. قد يخسر المؤمن شيئاً ويعلم أن ميزان الوجود لم يُغلق، وقد يموت المظلوم قبل استرداد حقه ولا يموت الحق، وقد يرحل المحسن دون تكريم ولا يرحل أجره، وقد يعيش الظالم مرفوع الرأس ولا يعني ذلك أنه نجا.

الإيمان بالآخرة لا يلغي الألم، لكنه يمنع الألم من ادعاء أنه الكلمة الأخيرة.

وهذا التحرر لا يدعو إلى قبول الظلم أو ترك الإصلاح؛ بل يمنح المصلح نفساً أطول. فالذي يظن أن كل النتائج يجب أن تظهر في عمره قد يئأس إذا تأخرت، أو يخرف إذا لم يحقق ما أراد. أما من يعمل تحت عين الله

ويوقن بالرجوع، فإنه يبذل ما يستطيع، ويحفظ يده من الحرام، ويعلم أن قيمة العمل ليست محصورة في النتيجة العاجلة.

ليس مطلوباً منك أن ترى اكتمال كل ما زرعت؛ مطلوب أن تزرع بصدق، وأن تلقى الله ولم تبع البذرة لتشتري تصفيق الموسم.

مشهد: الاسم المحفور على الباب

أمضى رجل أربعين عاماً يبني مؤسسته. بدأها صغيرة، ثم اتسعت حتى صار اسمه مكتوباً على واجهتها، وصورته معلقة في قاعتها الكبرى. كان يمر بالباب فيشعر أن الحجر نفسه يشهد له بالبقاء.

وذات صباح دخل مكتبه، فرأى عمالاً يغيرون بعض اللوحات ضمن هوية جديدة للمؤسسة. لم يكن اسمه هو المقصود بالحذف، لكن المشهد أيقظه: لوح يُزَع، وآخر يثبت، وفي ساعات قليلة يتغير وجه المكان الذي ظنه امتداداً لذاته.

سأل نفسه: ماذا يبقى مني إذا أزيل الاسم من الباب؟

الأبنية تنتقل، والمؤسسات تتغير، والأسماء التي ملأت زمناً قد تصبح سطرًا صغيراً في أرشيف. لكن السؤال الأصدق ليس: هل يبقى اسمي هنا؟ بل: بأي عمل أرجع إلى الله؟

قد يبقى الاسم ويهلك صاحبه، وقد يُنسى الاسم ويبقى عند الله خيره. ليست المشكلة أن يحب الإنسان أثراً حسناً بعده؛ ذلك مقصد كريم. إنما المشكلة أن يخلط بين بقاء الذكر في الأرض والنجاة في الآخرة.

فكم من اسم نُقش على الرخام ولم يخفف عن صاحبه حساباً، وكم من إنسان لم يحمل جدار اسمه، وحملت السماء دعوات من أحسن إليهم.

حين آمن الرجل بالرجوع على حقيقته، لم يهدم مؤسسته ولم يمَحُ اسمه بيده، لكنه بدأ يسأل عن الأجور المتأخرة، وعن حقوق من لا يستطيعون الوصول إليه، وعن أموال اختلط فيها الرِبح بالريبة، وعن قرارات اتخذها ليكبر البناء ولو صغرت بها نفوس العاملين.

لقد تحول سؤال البعث من فكرة عن المستقبل إلى مراجعة للحاضر.

القدرة التي تفتح باب الأمل

مع أن السياق يقيم الحجة على البعث، فإن الإيمان بقدرة الله على الرجوع يفيض على القلب بمعنى الرجاء. فالذي ردَّ الخلق يوم القيامة قادر على قلب الأحوال في الدنيا بما يشاء. ولا يعني ذلك وعداً بأن كل مريض سيشفى، أو كل غائب سيعود، أو كل خسارة ستعوض بالصورة التي يريدها الإنسان؛ فالأقدار تجري بحكمة الله، لا بأمانينا.

لكن الآية تحطم اليأس الذي ينشأ من توهم أن الأسباب المغلقة حد لقدرة الله.

قد يعجز الطيب، ولا يعجز الله.

وقد تنقطع الوسيلة، ولا ينقطع تدبيره.

وقد يفسد في الإنسان جانب طويلاً، ثم يفتح الله له باب توبة لم يكن يراه. وقد يظن المرء أن قلبه صار أرضاً ميتة، ثم تمر به آية فتنبض فيه حياة جديدة.

من قدر على إنشاء الإنسان من ماء لا تعجزه إعادة بناء قلب بعثرته الذنوب، إذا صدق صاحبه في الرجوع وأخذ بأسباب الهداية. ومن أخرج الوعي من بداية لم يكن فيها وعي، قادر أن يخرج من ركام الغفلة يقظة.

لا ينبغي أن نحل الآيات على وعد دنيوي مخصوص لم تنص عليه، لكن أصل القدرة الذي تقرره يمنع المؤمن من تأليه العوائق. إنه يرى استحالة الشيء في حساب الأسباب، ولا يحولها إلى حكم على قدرة رب الأسباب. واليأس كثيراً ما يكون سوء قياس: تقيس الغد بما تملكه اليوم، وتنسى أن الله يخلق من الأسباب ما لم يخطر لك.

الرجوع يبدأ بتوبة صغيرة

الرجوع الأكبر يوم القيامة لا يملك الإنسان دفعه؛ سيأتيه سواء استعد أم غفل. لكن ثمة رجوعاً اختيارياً يسبق ذلك اليوم: أن يعود إلى الله الآن. التوبة صورة من صور الرجوع. يعود القلب من الجهة التي أبعدته، ويعترف بأنه أخطأ الطريق، ويكف عن تزيين المسافة التي تفصله عن ربه. وليس أصعب ما في التوبة ترك الذنب دائماً، بل إسقاط القصة التي اخترعها الإنسان ليبرره.

يقول لنفسه: الظروف دفعتني.

الناس كلهم يفعلون.

كنت أسترد حقي.

لم أقصد تماماً.

سأغير حين تتحسن الحياة.

وقد يكون في بعض هذه الأعذار جزء من الحقيقة، لكنها لا تلغي

مسؤوليته كلها. والرجوع يبدأ حين يتوقف عن إقامة محامٍ داخلي لكل خطأ، ويقف أمام الله بصدق العبد: أخطأت، وظلمت نفسي، ولا نجاة لي إلا بعفوك وإعانتك.

ما دام الإنسان حياً، يستطيع أن يغيّر ما سيعود به. لا يستطيع نحو الماضي من ذاكرته، لكنه يستطيع بالتوبة الصادقة أن يبدل موقعه منه: بدل أن يكون مصراً عليه يصير نادماً راجعاً، وبدل أن يحمله إلى الله مفتخراً به يحمله منكسراً مستغفراً.

نعمة التوبة أن الله لم يجعل صحيفة الإنسان قدراً مغلقاً قبل الموت.

من الاستدلال إلى الاستعداد

قد يقتنع العقل بأن البعث ممكن، ثم لا يتغير السلوك. ومثل هذا الاقتناع يبقى ناقص الثمرة؛ لأن القرآن لا يقيم برهان الإعادة ليكسب مناظرة ذهنية فحسب، بل ليوظ الاستعداد.

إذا كان الله على رجح الإنسان لقادر، فالسؤال ليس: هل ثبتت القضية فقط؟ بل: ماذا أعددت للرجوع؟

المعرفة التي لا تعبر إلى الاختيار قد تتحول إلى حجة على صاحبها. يعرف أن الآخرة حق، ثم يعيش كأنها احتمال بعيد. يقر بأن الله قادر، ثم يرتب حياته كما لو أن الموت يملك إلغاء الوعد. يشيع جنازات غيره، لكنه يتعامل مع كل جنازة كأنها خبر عن نوع آخر من المخلوقات.

الموت لا يقول لك إن الحياة بلا قيمة؛ يقول إن قيمتها أشد مما تظن، لأن أيامها محدودة، ولأن آثارها غير محدودة بآثارها.

كل يوم يمر ينقص من زمن العمل، ويزيد في المادة التي ستلقى الله بها. وليس المطلوب أن يعيش الإنسان مدعوراً في كل لحظة، بل مستيقظ الاتجاه: يفرح دون أن ينسى، ويبني دون أن يطغى، ويحب دون أن يعبد ما يحب، ويحزن دون أن يظن أن الحزن أبدي.

الإيمان بالرجوع لا يطرد الإنسان من الحياة؛ إنه يعلمه أن يعبرها دون
أن يضيع فيها.

صدى الآية

أنت لست ماضياً إلى العدم، بل راجع إلى الذي بدأك. وكل خطوة
تظنها ابتعاداً عن النهاية إنما تمضي بك إليها.
فإذا كان الرجوع حتماً، فالحكمة ألا تنتظر أن تُردَّ إلى الله بجسدك؛ عد
إليه الآن بقلبك.

الفصل السادس

يوم تسقط أقنعة الداخل

يمكن للإنسان أن يهبط ظاهره قبل أن يخرج إلى الناس: ينتقي ثوبه، ويرتب عبارته، ويختار الزاوية التي يريد أن يرى منها. وقد يبلغ من المهارة أن يبني لنفسه صورةً متماسكة لا يكاد الآخرون يرون وراءها شيئاً؛ يضع لكل مجلس وجهه المناسب، ولكل جمهور لغته، ولكل موقف روايته التي تحفظ له مكانته.

غير أن وراء الوجه المرئي وجهاً آخر لا تصل إليه المرايا: وجه النية، والدافع، والمقصد، وما يقوله الإنسان لنفسه حين ينفض الناس من حوله.

هناك، في الجهة التي لا تظهر في الصور، تتشكل الحقيقة الأعمق للإنسان.

وبعد أن قررت السورة قدرة الله على إعادة الخلق، حددت الموعد الذي يكون فيه الرجوع:

﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾

[سورة الطارق: 9]

لم تقل: يوم تظهر الأجساد، مع أن البعث بعث للأجساد. ولم تقل: يوم تعرض الأعمال فحسب، مع أن الأعمال معروضة. اختارت السرائر؛ لأن أقصى ما يظنه الإنسان محصناً من الكشف هو ما أودعه في داخله، ولأن

صلاح الظاهر لا تكتمل قيمته إلا بما وراءه من صدق، كما أن فساد الباطن قد يحول أجمل الصور إلى ستار.

إنه اليوم الذي لا تُمحي فيه الوجوه، بل تُمحي المسافة بين الوجه والحقيقة.

المعنى التفسيري

• ما السرائر؟ وما معنى ابتلائها؟

السرائر جمع سريرة، وهي ما يسره الإنسان ويخفيه في باطنه من اعتقاد ونية وقصد. وفسر الطبري قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَلَى السَّرَائِرُ﴾

بأن سرائر العباد تُختبر فيظهر يومئذ ما كان مستتراً عن أعين الناس. وذكر بعض السلف في أمثلتها العبادات التي يستطيع الإنسان أن يدعي أداءها ولا يطلع الناس على حقيقتها، كالصلاة والصيام والطهارة، وليس المراد حصر السرائر في هذه الأمثلة، بل بيان أن ما خفي من حقيقة العمل لا يخفى على الله. تفسير الطبري

وأوضح ابن عاشور أن السريرة تشمل ما يخفيه الإنسان من نواياه وعقائده، وأن بلاءها هو تمييز الصالح منها من الفاسد والحساب عليها والجزاء، وأن اختبار الأعمال الظاهرة مفهوم من باب أولى. التحرير والتنوير

وليس معنى «الاختبار» أن الله تعالى يكتشف يوم القيامة ما لم يكن يعلمه؛ تعالى الله عن ذلك. فعلبه سبحانه سابق محيط، لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن. وإنما يكون الابتلاء هنا بمعنى الإظهار والتمييز وإقامة الجزاء على

ما علمه الله من عبادته؛ فتبدو حقيقة ما كان مستوراً، ويظهر أثره، وتقوم الحجة.

ومن المهم كذلك ألا تُتخذ الآية ذريعةً لادعاء معرفة بواطن الناس في الدنيا. نحن مأمورون بالحكم بالظاهر في عامة معاملتنا، والله يتولى السرائر. يجوز أن نستدل بالقرائن المعتبرة في مواضعها، وأن نحذر من النفاق والخداع، لكن لا يجوز لأحد أن يزعم أنه فتح قلوب الخلق أو جزم بنياتهم دون بينة.

الآية تدعوك إلى تفتيش سريرتك، لا إلى اقتحام سراير الآخرين.

التأمل الأدبي

الإنسان بين سيرتين

لكل إنسان سيرتان تمضيان معاً:

سيرة يكتبها الناس عنه، وسيرة يكتبها عمله عند الله.

في السيرة الأولى تبرز الوقائع المشهودة: أين ولد، وماذا تعلم، وماذا كتب، وأي منصب تولى، وماذا قال عنه معاصروه. أما السيرة الثانية فتدخل إلى المنطقة التي لا تصل إليها كتب التراجم: لماذا فعل؟ ولمن عمل؟ وما الذي قاومه في قلبه؟ وما الذي استسلم له؟ وكم مرة ظهر خيراً وفي دوافعه طلب للعلو؟ وكم مرة بدا صامتاً وكان في صمته صبر وعبادة؟ وكم موقفاً ظنه الناس ضعفاً وكان عند الله انتصاراً على النفس؟

قد تكون السيرة الأولى لامعة والثانية مظلمة. وقد تكون الأولى متواضعة لا يكاد يلتفت إليها أحد، بينما الثانية مملوءة بخير صامت لم تعرفه المناير.

وفي يوم تبلى السرائر تراجع رواية الجمهور، وتقدم حقيقة العبد عند

ربه.

ليس السؤال يومئذ: كم شخصاً اقتنع بأنك صالح؟

بل: هل كنت صالحاً حين لم تكن في حاجة إلى إقناع أحد؟

ليس السؤال: كم مرة تحدثت عن الحق؟

بل: ما نصيب الحق من قلبك حين خالف هواك؟

ليس السؤال: كيف بدوت في موطن البذل؟

بل: ماذا كنت تطلب وأنت تبذل؟

ليس السؤال: ما الاسم الذي حملته عملك؟

بل: ما الحقيقة التي حملها الاسم؟

إن الأسماء لا تدخل الآخرة وحدها. قد يسمى الفعل شجاعة وهو طلب

للشهرة، ويسمى صمتاً حكيماً وهو خوف على المصلحة، ويسمى دفاعاً عن

الحق وهو انتقام شخصي، وتسمى النصيحة تشهيراً مهذباً، وتسمى الغيرة حسداً

لم يجد لنفسه اسماً مقبولاً.

ويوم تبلى السرائر لا تنفع براعة التسمية؛ فالله يعلم الشيء قبل أن نكسوه

باللغة التي تخفف قبحه.

• ما الذي تخفيه الأعمال الجميلة؟

ليس أخطر ما في السرائر الذنوب الظاهرة التي يسترها الإنسان بحسب،

بل الآفات التي قد تسكن الطاعات نفسها.

قد يقف الرجل في موضع الخير، لكن قلبه يلتفت إلى وجوه الناظرين:

هل أعجبهم؟

وقد يكتب الكاتب دفاعاً عن فضيلة، ويكون في أعماقه جوع إلى أن يقال: ما أبلغه وأصدقته.

وقد ينفق المرء على محتاج، ثم يستبقي في نفسه شعور السيادة عليه.
وقد ينصح أخاه، لكنه يختار للنصيحة وقتاً وهيئةً يضمنان إذلاله.
وقد يترك معصية خوفاً من انكسار صورته، لا تعظيماً لحدود الله.

وهذا لا يعني أن كل سرور بثناء الناس رياء، ولا أن كل اختلاط في الدافع يبطل العمل، ولا أن المؤمن مطالب بأن يبلغ كمالاً يستحيل معه مرور خاطر بشري في قلبه. فالقلوب تثقل، والنيات تحتاج إلى مجاهدة وتجديد، وقد يجتمع في العمل أكثر من باعث.

لكن الخطر أن يرفض الإنسان الاعتراف بهذا الاختلاط، وأن يحوّل نفسه إلى قديس في روايته الخاصة، فلا يراجع دفاعاً ولا يتهم هوى.

الإخلاص ليس ادعاء نقاء كامل، بل دوام العودة إلى الله كلما تسلل إلى القلب شريك من حظوظ النفس.

وقد يقول الإنسان: ماذا أفعل إذا وجدت في نفسي حب الثناء؟ لا يترك الخير بالضرورة؛ لأن ترك العمل لأجل الناس قد يكون وجهاً آخر من وجوه الالتفات إليهم. وإنما يصحح قصده، ويستعيد بالله من الرياء، ويخفي من الخير ما يستطيع، ويستمر في مجاهدة قلبه، ولا يجعل شعوره بآفة النية مبرراً لليأس أو القعود.

فالسريرة لا تصلح بضربة واحدة، بل بصحبة طويلة مع الصديق.

الأقنعة التي نصدقها

أسهل الأقنعة خلغاً ما نعرف أنه قناع. أما أخطرها فهو الذي طال ارتداؤه حتى ظنه صاحبه وجهه الحقيقي.

قد يكرر الإنسان تبريراً سنوات حتى يتحول عنده إلى حقيقة. يقول إنه ترك صاحبه لأن الصحبة لم تعد صالحة، بينما الدافع الأعمق أنه لم يحتمل تفوقه. ويقول إنه نقد شخصاً دفاعاً عن المبدأ، بينما كان يستريح سراً لسقوطه. ويقول إنه منع العطاء تربيةً للمحتاج، بينما كان البخيل يكتب القرار ثم يستدعي الحكمة لتوقيعه.

ولأن النفس لا تحب أن ترى قبحها مجرداً، فإنها تبحث له عن ثياب لغوية محترمة.

من هنا كانت محاسبة السريرة تحتاج إلى شجاعة أكبر من الاعتراف بالفعل. قد يقول المرء بسهولة: غضبت. لكن يصعب عليه أن يقول: غضبت لأن كبريائي جرح، لا لأن الحق انتقص. وقد يعترف: تكلمت. لكن يصعب أن يقر: تكلمت لأثبت أنني حاضر، لا لأن الكلام كان لازماً.

إن صدق الإنسان مع نفسه في الدنيا رحمة؛ لأنه يتيح له أن يعالج ما سيظهر في الآخرة. وكل قناع يخلعه هنا بتوبة، خير من قناع يسقط هناك بفضيحة لا يملك بعدها عملاً.

ليس المطلوب أن يسوء ظنك بنفسك حتى تنكر كل خير فيها، وإنما ألا تحسن الظن بها حتى تعطيها العصمة.

الإسقاط التربوي المعاصر

عصر العلامة الشخصية

يعيش كثير من الناس اليوم في فضاء يدفعهم إلى تحويل الذات إلى «صورة عامة». يختار الإنسان ما يعرضه من حياته، ويخفي ما لا ينسجم مع صورته، وينتقي اللحظات التي تجعله يبدو سعيداً أو ناجحاً أو واعياً أو صالحاً.

ولا حرج في أن يستر الإنسان خصوصياته، أو أن يختار من حياته ما يشارك به غيره. فليس الصدق أن يعرض المرء كل شيء. لكن الخطر أن تتحول الصورة المنتقاة إلى ذات بديلة يعيش لحمايتها، وأن يستهلك قلبه في إدارة الانطباع بدل إصلاح الحقيقة.

قد يبدو متوازناً وهو يتداعى في الخفاء.

وقد يكتب عن الرحمة وهو يقسو على أقرب الناس إليه.

وقد يتحدث عن التواضع وليشد غضبه إذا لم يُقدّم.

وقد يدعو إلى الصدق، لكنه يحذف من قصته كل ما يهدد صورته.

وقد يكثر من إعلان مبادئه حتى يظن أن الإعلان يغنيه عن امتحانها.

إن المنصات لا تخلق النفاق وحدها، لكنها تمنح النفس أدوات دقيقة

لصناعة نسخة محسنة من ذاتها. وكلها اتسعت المسافة بين النسخة المعروضة

والحقيقة المعاشة، صار الإنسان أسيراً لصورة يخشى سقوطها.

ثم تأتي الآية:

﴿يَوْمَ تَلَى السَّرَائِرُ﴾

[سورة الطارق: 9]

فتعيد تعريف النجاح: ليس النجاح أن تحسن إدارة ما يراه الناس، بل أن تصلح ما سيراه الله يوم انكشاف الحقائق، وهو يراه الآن كما هو.

ليس الستر دعوة إلى الفضيحة

الإيمان بانكشاف السرائر يوم القيامة لا يعني أن يفضح الإنسان نفسه في الدنيا، ولا أن يذيع ذنوبه على الناس. من ستره الله فليستر نفسه، وليتب إلى ربه، وليصلح ما أفسد، وليرد الحقوق إلى أهلها بالطريق المشروع. المقصود إزالة الذنب لا إزالة الستر.

وكذلك لا يجوز أن تتحول الرغبة في «كشف الحقيقة» إلى شهوة لتمزيق ستر الآخرين. فكم من إنسان يتحدث عن الشفافية، وهو في باطنه يتلذذ بتعريتهم. وكم من فضيحة نُشرت باسم حماية القيم، وكان نشر تفاصيلها أوسع من الحاجة وأقرب إلى التشفي.

توجد مواضع مشروعة يجب فيها كشف الظلم والتحذير من الضرر وأداء الشهادة، بضوابط العدل والتثبت والحاجة. لكن ذلك مختلف عن تحويل عورات الناس إلى مادة للتسلية أو تصفية الحسابات.

سورة الطارق لم تقل: اكشفوا سرائر بعضكم. قالت إن السرائر تُبلى يوم القيامة.

هناك فرق بين عدالة تحمي المجتمع، وفضول يقتات على سقوط البشر.

مشهد: خطاب التكريم

وقف رجل على منصة واسعة يتلقى تكريماً عن سنوات من خدمة الفقراء. كانت الشاشة خلفه تعرض صوراً لمشروعات حملت اسمه، وكان المذيع يعدد فضائله، والجمهور يصفق.

لم تكن المشروعات وهماً؛ لقد انتفع بها خلق كثير. لكن الرجل وحده كان يعرف أن أموالاً لم تصل إلى مستحقيها، وأن بعض الصور صُنعت خصيصاً للدعاية، وأنه أذل موظفين مخلصين ثم نسب جهدهم إلى نفسه. في تلك اللحظة اجتمع حوله ظاهر جميل وباطن مثقل. لم يكن كل عمله باطلاً، ولم يكن كل الثناء كذباً؛ لكن السيرة المعروضة ناقصة، والجزء المحذوف هو الذي سيغير وزن الحكاية.

لو أنصت قلبه إلى الآية:

﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾

[سورة الطارق: 9]

لما كان المطلوب أن ينزل عن المنصة معلناً كل ذنب على الملأ، وإنما أن ينزل منها إلى نفسه: يرد المال، ويطلب العفو ممن ظلم، وينسب الفضل إلى أهله، ويصحح ما يستطيع قبل أن ينتقل الملف من زمن الإصلاح إلى يوم الجزاء.

فالتدبر الصادق لا يكتفي بإشعارنا برهبة الموقف؛ إنه يسأل: ما الذي ما زال ممكناً الآن؟

ما دام السر مستوراً في الدنيا، فثمة فرصة أن يُطهر بالتوبة. أما إذا ظهر في يوم البلاء، فقد انتهى زمن تعديل السجل.

السرائر الطيبة أيضاً ستظهر

كثيراً ما يُذكر انكشاف السرائر في سياق الخوف من ظهور القبيح، وهو معنى حق. لكن السرائر ليست كلها ذنوباً؛ فيها من الكنوز ما لم يعرفه الناس.

ستظهر نية صادقة دفعت عملاً صغيراً.

وسيبان صبر خبأه صاحبه خلف وجه هادئ.

وتُعرف عفة إنسان مرّت به الفتنة فلم يخبر أحداً أنه نجا منها.

ويظهر قلب ساح من أساء إليه، مع أنه بقي أمام الناس صامتاً.

وتتكشف دعوات خرجت في الليل لأشخاص لم يعلموا أن أحداً أحبهم إلى هذا الحد.

ويظهر خوف عبد من الله كان يمنعه في خلوته، وإن لم يكن خطيئاً ولا مشهوراً بالصالح.

يا لها من مواساة لمن كانت حقيقته أجمل من صورته.

في الدنيا قد يتفوق أصحاب العرض؛ لأنهم يملكون أدوات البيان

والوصول. أما في الآخرة فلا تحتاج السريرة الصادقة إلى متحدث رسمي.

ستكلم حقيقتها بما يقدره الله من ظهورها وجزائها.

فلا تحزن إذا ضاع بعض خيرك من ذاكرة الناس؛ ربما كان حفظه عن أعينهم جزءاً من جماله.

سريرة الجماعات والمؤسسات

كما تكون للأفراد مسافة بين الظاهر والباطن، قد تنشأ للمؤسسات والجماعات والدول مسافة مشابهة. ترفع مؤسسة شعار خدمة الإنسان، بينما تقوم بنيتها على استنزافه. وتحدث جماعة عن الشورى، بينما تضيق بالنقد. وتعلن دولة حماية العدالة، بينما توزعها بحسب الولاء والقوة.

لا تثبت النيات الخفية للأفراد بلا بينة، لكننا نستطيع نقد التناقض بين الشعارات والممارسات الظاهرة. فالسراير عند الله، أما الوقائع المعلنة وآثار السياسات فجبال للنظر والعدل والمحاسبة.

وهنا تمنح الآية للمصلح ميزاناً مزدوجاً: لا يخذع بالعنوان، ولا يدعي علم الباطن. ينظر في العمل ونتائجه، ويزنها بالحق، ويترك لله ما استأثر بعلمه من القلوب.

وكذلك ينبغي لمن يعمل في مشروع إسلامي أو خيري أو إصلاحي ألا يظن أن جلال الشعار يعصم الوسيلة. قد يكون العنوان نبيلاً وتفسده نية الاستعلاء، أو حب السيطرة، أو إهدار حقوق الأفراد باسم المصلحة الكبرى.

الغايات الصحيحة لا تطهر كل طريق إليها، والشعارات الإيمانية لا تغني عن سرائر صادقة ووسائل عادلة.

بناء سريرة لا تخجل من الظهور

لا يملك الإنسان سريرة كاملة لا عيب فيها، لكنه يستطيع أن يبني سريرة كثيرة الرجوع. وهذه من أعظم علامات النجاة: ألا يصر القلب على فساد عرفه.

وتبدأ عمارة الداخل بخطوات لا يراها الناس:

أن يكون لك عمل صالح لا تحدث به أحداً.

أن تعتذر في قلبك من وهم العصمة قبل أن تعتذر بلسانك.

أن تستغفر من الدافع الفاسد كما تستغفر من الفعل الفاسد.

أن تسأل نفسك قبل المواقف: لو لم يمدحني أحد، هل يبقى هذا العمل محبوباً لدي؟

أن تحزن إذا انكسرت علاقتك بالله أكثر مما تحزن إذا انكسرت صورتك عند الناس.

أن تفرح بخير يجري على يد غيرك، حتى إن نسي اسمك.

أن تتوب من الذنب دون أن تنتظر أن يفضحك.

ولا ينبغي أن تتحول محاسبة النية إلى شلل. فالوسواس يطالب الإنسان

ببقين مستحيل حول كل دافع، ثم يمنعه من العمل. أما المحاسبة الرشيدة

فتسأل، وتصحح، وتمضي. تستعين بالله، وتكثر من الدعاء بالقبول، ولا

تزكي النفس ولا تياس منها.

إن الله لم يأمرنا أن نعلم كل خفايا قلوبنا علماً محيطاً، فهذا لا نملكه؛ إنما أمرنا بالصدق والمجاهدة والتوبة.

الخلوة موعد ترميم

إذا كانت السرائر ستظهر يوماً، فإن للخلوة في الدنيا وظيفة أخرى غير إخفاء الخطأ: أن تكون موضع إصلاح.

في الخلوة تستطيع أن تقول لله ما لا تحسن قوله أمام أحد. أن تعترف بما هزمك دون أن تدافع عن سمعتك. أن تبكي من قسوة لا يعرفها الناس لأنهم يرون منك الكلمات الرقيقة. أن تسأله قلباً أنقى من صورتك، وعملاً أصدق من خطابك.

إن أجمل الخلوات ليست التي يختفي فيها الإنسان عن الناس ليفعل ما يستحي منه، بل التي يختفي فيها عنهم ليصلح ما لا يصلحه إلا بينه وبين الله.

هناك تنشأ سريرة من نور؛ لا لأن صاحبها بلا ذنب، بل لأنه لا يجعل الذنب بيتاً، وإنما يجعله محطة رجوع.

صدى الآية

سيأتي يوم لا يستطيع الإنسان أن يقف خلف عبارته، ولا أن يختفي بصورته، ولا أن يشرح نيته على النحو الذي يريده؛ ستتكلم الحقيقة دون أقنعة.

فاجعل لك في الخفاء قلباً إذا ظهر لم يخجل من نوره، وإن ظهر ضعفه احتسب بصدق توبته.

الفصل السابع

حين تنقطع القوة وينفضُ الناصر

إذا انكشفت السريرة، بحث الإنسان بفطرته عن وسيلة يدفع بها أثر انكشافها. هكذا يفعل في الدنيا: إذا أخطأ استعان بقوته، فإن لم تكف طلب قوة غيره. يحميه ماله، أو منصبه، أو عشيرته، أو محاموه، أو أصدقاؤه، أو شبكة المصالح التي نسجها حول نفسه.

وحياة البشر في جانب كبير منها قائمة على هذين الركنين: قوة من الداخل، ونصرة من الخارج.

لكن السورة تهدم الركنين في كلمات قليلة:

﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

[سورة الطارق: 10]

لا قوة في ذاته يدفع بها، ولا ناصر من خارجه ينقذه. لا يملك الحجة التي تبطل الحقيقة، ولا الجسد الذي يقاوم الحكم، ولا الحليف الذي يغير المصير. لقد وقف الإنسان يومئذ منفرداً، لا لأن علاقاته كلها كانت وهماً، بل لأن كل علاقة لم تبْنَ على طاعة الله بلغت حدها، ثم تركته أمام الحقيقة التي لا يحميها عنه أحد.

المعنى التفسيري

نفي المنعة والنصرة

يرتبط قوله تعالى:

﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

يوم ابتلاء السرائر. فحين يرجع الإنسان ويظهر ما أخفاه، لا تكون له قوة يدفع بها عن نفسه العذاب، ولا ناصر ينصره من دون الله.

فسر الطبري القوة بما يتمتع به الإنسان، والناصر بمن يستنقذه مما نزل به، وأشار إلى أن الإنسان كان في الدنيا يرجع إلى قوة عشيرته وإلى حلفائه، أما يوم القيامة فلا قوة تمنعه ولا ناصر ينقذه من حكم الله. تفسير الطبري

وذكر القرطبي أن القوة قد يراد بها منعة الإنسان في نفسه، والناصر من يعينه من خارجه؛ فيجتمع في الآية نفي القدرة الذاتية ونفي النجدة الخارجية. تفسير القرطبي لسورة الطارق

ولا تعارض هذه الآية ما ثبت من الشفاعة يوم القيامة؛ فالشفاعة حق، لكنها لا تكون استقلالاً عن الله، بل بإذنه ورضاه. والآية تنفي وجود قوة أو نصرة تملك أن تدفع حكم الله أو تنتزع الإنسان من سلطانه. فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، ولا يملك مخلوق لنفسه أو لغيره شيئاً إلا ما أقدره الله عليه.

إنها تنفي النصرة التي يتوهمها الإنسان حقاً مضموناً بسبب نسب أو جاه أو ولاء، لا ما يأذن الله به من رحمة وشفاعة.

التأمل الأدبي

عكازان يسقطان معاً

يتكى الإنسان في الدنيا على عكازين: أنا أستطيع، وهناك من سيقف معي.

الأول هو وهم القوة الذاتية، والثاني وهم النصرة المضمونة. وقد تكون القدرة والحليف نعمتين حقيقتين؛ فالإنسان يقدر في حدود، ويعينه الناس في حدود. لكن الوهم يبدأ حين ينسى أن الحد نفسه قائم بإذن الله، وأن النعمة قد تنقطع في لحظة.

يقول القوي: سأدفع عن نفسي.

ويقول الغني: سأشتري المخرج.

ويقول صاحب النفوذ: سأستدعي من يتدخل.

ويقول ابن العشيرة: لن يتركوني.

ويقول المشهور: جمهوري سيحميني.

ويقول صاحب الحجّة: سأعيد صياغة القصة.

ثم يأتي اليوم الذي لا تعمل فيه أدوات إدارة الصورة، ولا تنفع فيه كثرة الأتباع، ولا يشتري فيه حكم، ولا تُعدل فيه الوثائق بعد إغلاقها.

﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

[سورة الطارق: 10]

ليست الآية وصفاً لفقد بعض الوسائل، بل لانهيار منطق الاعتماد على كل ما سوى الله.

القوة التي تخدع صاحبها

للقوة سحر خاص؛ فهي لا تمنح الإنسان قدرة على الفعل وحدها، بل قد تعيد تشكيل رؤيته للحقيقة. إذا طال به النفوذ، بدأ يظن أن ما لا يستطيع أحد منعه منه صار حقاً له. تختلط القدرة بالمشروعية: بما أنني أستطيع، إذن يحق لي.

وهنا تبدأ القوة في إفساد البصيرة.

يستطيع صاحب المنصب إسكات الناقد، فيتوهم أنه أبطل النقد.

ويستطيع الغني تأخير حق الفقير، فيحسب أن التأخير محا الحق.

ويستطيع الأقوى صياغة الرواية العامة، فيظن أن الحقيقة أصبحت ملكاً للمنتصر.

ويستطيع الظالم إخافة الشهود، فيظن أن الواقعة لم تعد موجودة.

لكن القوة تغير ما يقع في دائرة البشر، ولا تغير علم الله. تستطيع أن

تمنع اللسان من الكلام، ولا تستطيع أن تحو ما وقع. تستطيع أن تغلق ملفاً

في مؤسسة، ولا تستطيع أن تغلقه في الكتاب المحفوظ. تستطيع أن تؤخر

الحساب في الدنيا، ولا تستطيع إلغاء يوم الحساب.

وأشد ما تصنعه القوة بصاحبها أنها تجعل صدمته بالحقيقة. فالضعيف

يعرف حدود نفسه مبكراً، أما القوي فقد يعيش سنوات داخل حصن

الأسباب، حتى يأتيه يوم يكتشف فيه أن الحصن كان قائماً على أرض

ليست له.

ليست القوة مذمومة في ذاتها

لا يدعو القرآن إلى الضعف، ولا يجعل العجز فضيلةً في ذاته. فقد أمر الله بإعداد القوة، ومدح الأمانة والكفاءة، وجعل للمؤمن أن يدفع الظلم بالوسائل المشروعة. وإنما المذموم أن تتحول القوة إلى معبود باطن، أو أن يظن صاحبها أنها مستقلة عن الله، أو يستعملها في العدوان.

هناك فرق بين أن تملك القوة، وأن تملكك القوة.

من يملكها بحق يشكر، ويعدل، ويعرف أنها أمانة مؤقتة. ومن تملكه يرى الآخرين درجات تحت سلطانه، ويعامل النعمة كأنها شهادة تفوق ذاتي.

القوة المؤمنة تزداد تواضعاً كلما اتسعت؛ لأنها تعرف اتساع المسؤولية. أما القوة الغافلة فتزداد قسوة؛ لأنها تقيس صحة الأفعال بمقدار ما تستطيع الإفلات من عواقبها.

والآية لا تطلب منك أن تلقي أدوات قوتك، بل أن تنزع عنها وهم الألوهية. استعمل عقلك، ومالك، وجاهك، وعلاقاتك، لكن لا تمنحها في قلبك رتبة لا تملكها. هي أسباب، وليست أرباباً.

الناصر الذي يغيب عند الحاجة الأخيرة

يحسن الإنسان صناعة التحالفات في الدنيا. يعرف من يتصل به عند الأزمة، ومن يكتب له التوصية، ومن يفتح له الباب، ومن يدافع عنه في المجلس. وقد يتسع نفوذه حتى لا يكاد يواجه مشكلة إلا وجد لها وسيطاً.

لكن الآخرة عالم تسقط فيه قابلية الوساطة الفاسدة. لا قرابة تنقض
عدل الله، ولا صداقة تشتري البراءة، ولا جماعة تحمل ذنب فرد لأنه كان
وفياً لشعارها.

كم من إنسان عاش مستنداً إلى اسم أبيه.
وكم من صاحب سلطة ظن أن رجاله سيقون حوله.
وكم من تابع ارتكب الخطأ مطمئناً إلى أن قائده يتحمل عنه المسؤولية.
وكم من مقلد ألغى عقله، ثم قال: وجدت الجماعة على هذا الطريق.
غير أن الإنسان يرجع بنفسه، ويسأل عن أمانته واختياره في حدود ما
آتاه الله من قدرة وعلم.

لن ينفعه أن يقول: كان الجميع يفعلون.
ولا: أمرني من هو أعلى مني، إذا كان الأمر معصية بينة لا تجوز طاعته
فيها.
ولا: خشيت خسارة مكاني، إذا باع الحق ليحفظ المكان.
ولا: وثقت بفلان ولم أراجع، إذا كان يملك وسائل النظر ثم أعرض عنها.
الناصر الذي يدفع عنك سؤال الناس قد لا يملك أن يجيب بدلاً عنك
أمام الله.

الإسقاط التربوي المعاصر

شبكات النفوذ الحديثة

لم تعد القوة محصورة في السيف والعشيرة. صار لها وجوه جديدة: رأس
المال، والتحكم بالمعلومة، والمنصة الإعلامية، وعدد المتابعين، والقدرة على
توجيه الرأي العام، والخوارزمية التي ترفع صوتاً وتدفن آخر.

قد يُحاصر إنسان لا لأنه أخطأ، بل لأن من خاصه يملك جمهوراً أكبر. وقد تتحول الكثرة الرقية إلى شعور بالحصانة: إذا صَفَّق الآلاف لي، فلا بد أنني على حق. وإذا استطعت إسكات الرواية الأخرى، فقد انتهت القضية.

لكن العدد لا يحوّل الباطل إلى حق. آلاف الإعجابات لا تغير وزن النية عند الله، والانتشار لا يطهر الكلمة من الظلم، واختفاء صوت المظلوم من المنصة لا يعني أنه غاب عن السمع الإلهي.

وقد يكون الضعيف في الفضاء العام أقوى عند الله بحقه، ويكون صاحب الجمهور عاجزاً في الحقيقة؛ لأن القوة التي لا تنصره يوم القيامة ليست القوة النهائية.

هذا لا يعني إهمال أثر الإعلام أو ترك ساحة الكلمة للباطل؛ فالوسائل مؤثرة ويجب استعمالها بالحق. لكنه يعني ألا نخلط بين الغلبة المؤقتة والحكم الأخير.

الترند ليس ميزاناً أخلاقياً، والكثرة ليست محكمة الآخرة.

مشهد: حين انفضَّ المجلس

ظل مسؤول سنوات يجلس في صدر المجالس. إذا دخل وقف الناس، وإذا تكلم سكتوا، وإذا طلب أنجز طلبه قبل أن يتم العبارة. كان يظن أن الاحترام الذي يراه متصل بجوهره، لا بالكُرسي الذي يجلس عليه.

ثم خرج من منصبه.

في الأسابيع الأولى بقي الهاتف مزدهجاً، ثم خفتت الاتصالات. اعتذر بعض من كانوا ينتظرون ساعات لرؤيته، وتأخر آخرون في الرد، وصار المجلس الذي كان يمتلئ حوله يجرد فيه مقاعد كثيرة فارغة.

لم يفقد الرجل ماله كله، ولا صحته، ولا أسرته؛ فقد فقط السلطة التي كانت تجمع إليه وجوهاً لا تحبه، بل تحب الطريق الذي يمر عبره.

عندئذ فهم — ولو من بعيد — كيف تنفض النصرة المصنوعة حين ينتهي نفعها.

إن ما وقع له في الدنيا ليس هو المراد المباشر بالآية، فالآية تتحدث عن عجز يوم القيامة. لكنه مثال تربوي يكشف هشاشة بعض ما يسميه الإنسان نصرة. كثير ممن يقفون حول قوتك لا يقفون معك، بل مع مصالحهم عندك.

فإذا كانت مناصرة الدنيا نفسها قابلة للتبدل بهذه السرعة، فكيف يجعلها العاقل ضمناً أمام الله؟

لا قوة إلا بالله: من الشعار إلى الوعي

يقول المسلم: لا حول ولا قوة إلا بالله، لكنها قد تبقى على لسانه بينما تبني حياته معنى آخر: لا قوة إلا بالمال، أو بالمنصب، أو بالجماعة، أو بفلان. وليس صدق الذكر أن يهمل السبب؛ بل أن يراه سبباً. يطرق الباب وهو يعلم أن الفتح من الله، ويطلب المساعدة من الخلق وهو يعلم أن قلوبهم وقدرتهم تحت تدبير الله، ويستعد للهواجهة لكنه لا يعبد استعداده. التوكل لا يعني أن تدخل المعركة بلا عدة، وإنما ألا تدخلها بقلب يعتقد أن العدة خالقة النتيجة.

وقد ينكشف اعتماد القلب عند فقد السبب. فإذا تعطل طريق واحد ظن الإنسان أن العالم انتهى؛ لأنه لم يكن مستعيناً بالسبب، بل كان عابداً له من حيث لا يشعر. أما من تعلق بالله، فإنه يحزن ويقلق ويبحث عن بديل،

لكنه لا ينهار عقدياً؛ يعرف أن الباب المغلق مخلوق، وأن خزائن الله لا تختصر في باب.

إن أعظم قوة يملكها المؤمن ليست أنه لا يضعف، بل أنه إذا اكتشف ضعفه عرف إلى من يرفعه.

قوة الإنسان وحدودها

في الإنسان قوة حقيقية أودعها الله فيه؛ بها يقرر، ويصبر، ويقاوم، ويبني. ولو لم تكن له قدرة معتبرة لما كُلف ولا حوسب. لكن هذه القدرة محاطة من كل جهة:

يملك أن يرفع يده، ولا يضمن أن تبقى اليد قادرة غداً.

يملك أن يخطط، ولا يملك كل المتغيرات.

يملك أن يتكلم، ولا يملك كيف تقع كلمته في القلوب.

يملك أن يزرع، ولا يخلق الحياة في البذرة.

يملك أن يعالج، ولا يخلق الشفاء.

يملك أن يدافع، ولا يضمن النصر.

العبودية ليست نقياً لما منحك الله، بل معرفةً بحدوده ونسبته إلى واهبه.

والإنسان بين انحرافين: أن ينكر قدرته فيستسلم ويحتج بالقدر، أو يؤله قدرته فيستكبر وينسى الله. أما الطريق المستقيم فهو أن يعمل بكل ما أوتي، ثم يعلم أن النتائج ليست مملوكة له.

ابذل جهد القادر، واستعن افتقار العاجز.

حين يصبح الناصر صنماً

قد يتعلق الإنسان بشخص حتى يمنحه في قلبه ما لا يملكه. يظن أن بقاءه متوقف على رضا مسؤول، أو أن رزقه مربوط بيد صاحب مال، أو أن نجاته الفكرية مرهونة بقائد لا يجوز مراجعته. يبدأ الأمر بثقة أو محبة أو تعاون مشروع، ثم يتحول إلى خوف يزاحم خوف الله، أو طاعة في الباطل، أو تبرير لكل خطأ.

وهنا يصنع الإنسان صنماً لا يلزم أن يكون حجراً. قد يكون الصنم بشراً يعتقد التابع أن قربه يمنحه حصانة من الحق.

إن المحبة لا تعني العصمة، والوفاء لا يعني السكوت عن الخطأ، والطاعة لا تكون في معصية الله. وكل ناصر بشري محدود: قد يحبك ولا يستطيع دفع المرض عنك، وقد يدافع عنك ولا يملك رد الموت، وقد يشفع لك عند مسؤول ولا يملك كلمة واحدة أمام الله إلا بإذنه.

إذا وضعت المخلوق في مقامه أحببته من غير عبادة، وشكرته من غير ذلة، واستعنت به من غير أن تبيع له ضميرك.

أما إذا ظننت أنه يملك مصيرك، فقد صنعت من حاجتك قيئاً.

• ماذا يبقى حين تسقط القوات؟

إذا لم تكن للإنسان قوة ولا ناصر يوم القيامة، فما الذي يبقى؟

يبقى عدل الله ورحمته، ويبقى ما قدمه العبد من إيمان وعمل صالح، ويبقى فضل الله الذي لا يستغني عنه أحد. وليس المقصود أن يعتمد العبد

على عمله استقلالاً؛ فدخل الجنة برحمة الله، والعمل سبب شرعه الله
ودليل على صدق العبودية.

ولهذا لا تقود الآية المؤمن إلى اليأس، بل إلى نقل اعتماده. تنزع قلبه
من القوة الزائفة والناصر الموهوم، لتعلقه بمن بيده القوة والنصر جميعاً.
من كان مع الله في الدنيا بالطاعة والتوكل لم يكن اعتماده على شيء
سينفض عنه في الآخرة. ومن طلب العزة بالحق لم يحتج أن يبيع سريره
ليكسب نصراً مؤقتاً.

إن أشد الناس وحدة يوم القيامة من أحاط نفسه في الدنيا بأتباع أبعده
عن الله.

وأكثرهم أمناً من لم ير لنفسه حولاً ولا قوة، فهرب من ضعفه إلى ربه،
وعمل، وتاب، ورجا.

التربية على الاستغناء بالله

ليس الاستغناء بالله انسحاباً من المجتمع، ولا قطيعةً مع الناس، ولا
ازدراءً لمساعدتهم. الإنسان مدني بالطبع، يحتاج ويحتاج إليه، ويعين ويُعان.
لكن الاستغناء القلبي يعني ألا تجعل قبولك للحق مرهوناً برضاهم، ولا
قيمتك معلقة بتصفيقتهم، ولا ثباتك قائماً على بقائهم.

قد يرحل من وعدك ألا يرحل.

وقد يضعف من ظننته سنداً.

وقد تتغير المصالح.

وقد تتقف في موقف لا يستطيع أقرب الناس أن يحمل عنك ألمه.

وفي تلك اللحظات يظهر ما إذا كنت قد أحبيت الناس في ظل الله، أم جعلتهم بدلاً عنه.

المؤمن يحزن لفقد ناصره البشري؛ فهو بشر لا حجر. لكنه لا يعتقد أن النصره نفسها ماتت، لأن خزائنها لم تكن عند ذلك الشخص. يشكر اليد التي أعانته، ويعرف أن الله هو الذي سخرها، فإذا غابت يدٌ لم يغيب ربها.

صدى الآية

ستسقط القوة التي تفاخر بها، وينفض الناصر الذي ظننته جداراً، ويبقى الإنسان أمام عمله وربه.

فلا تجعل قلبك رهينة شيء ينتهي عند أول حدود الآخرة؛ خذ من الأسباب ما استطعت، واجعل اعتمادك على من لا تنتهي قدرته ولا يغيب نصره.

الفصل الثامن

سَمَاءٌ تَرْجِعُ وَأَرْضٌ تُتَّصَدَعُ

بعد أن أخذتنا السورة إلى يوم تلي فيه السرائر، وبعد أن نزعت عن الإنسان قوته وناصره، أعادتنا مرة أخرى إلى مشهد الكون. كأن النفس، وقد ضاق عليها مشهد الحساب، تفتح لها نافذة تنظر منها إلى آية تتكرر أمامها في الدنيا: سماء تعيد الماء، وأرض تنشق عن الحياة.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾

[سورة الطارق: 11]

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾

[سورة الطارق: 12]

في مطلع السورة كانت السماء ذات طارق، وهنا صارت ذات رجوع. وهناك ظهر النجم من ظلمة الليل، وهنا يهبط الماء إلى موت الأرض. في القسم الأول ضوء يثقب الظلام، وفي القسم الثاني مطر يشق التراب. وفي المشهدين قوة حياة تنفذ حاجزًا ظنه الناظر محكمًا: النور يعبر العتمة، والنبات يعبر الأرض.

إنها سورة الأشياء التي لا تمنعها الحجب من الظهور: نجم يخترق الليل، وسريرة تخترق سترها، ونبات يخترق التراب، وقرآن يفصل بين حق غُطِّي وباطل زُنِّي.

المعنى التفسيري

السماء ذات الرجع

فسر جمهور المفسرين الرَّجْع بالمطر؛ لأنه يرجع ويتكرر، فتعود السمااء به مرة بعد مرة. ونقل الطبري عن ابن عباس أن الرجع هو القطر والرزق الذي يأتي كل عام، وعن مجاهد أن السحاب يمطر ثم يرجع بالمطر، وعن قتادة أن السمااء ترجع بالغيث الذي تقوم به أرزاق العباد. وذكر قول آخر بأن الرجع عودة الشمس والقمر والنجوم في مطالعها، لكن تفسيره بالمطر هو الأشهر والأنسب باقتراحه بالأرض ذات الصدع. تفسير الطبري

فالسمااء ترجع بالماء، والأرض تستقبله ثم تنصدع عما ينبت فيها. القسم يجمع بين السبب النازل من فوق، والأثر الخارج من تحت؛ بين ماء لا يملكه الإنسان، وبذرة لا يستطيع أن يشق عنها التراب بيده.

الأرض ذات الصدع

الصدع هو الشق، والمقصود هنا — عند جمهور المفسرين — تشقق الأرض عن النبات. تبدو الأرض قبل المطر ساكنة يابسة، ثم يصل الماء إلى باطنها، فتتفخخ البذور، وتمتد الجذور، ويشق النبات طريقه إلى الضوء.

وليس المقصود مجرد الشقوق التي تظهر على سطح الأرض بسبب الجفاف، بل انصداعها عما يخرج منها من نبات وثمر؛ لأن اقتران الصدع بالرجع يرسم دورة الماء والحياة: السمااء ترجع بالمطر، والأرض تنشق بالنبات.

وذكر السعدي ضمن دلالات المشهد انصداع الأرض عن الأموات، وهو معنى يتناسب من جهة الاعتبار مع سياق البعث، وإن كان المعنى

المباشر المشهور للصدع في الآية هو تشققها عن النبات. ومن الإنصاف أن نُميّز بين التفسير المباشر وبين الاستدلال بالمشهد على إمكان البعث: الأرض تنصدع في المشاهدة عن النبات، وهذا الإحياء المتكرر شاهد على قدرة الله على أن يخرج الموتى منها. تفسير السعدي

جواب القسم

جواب هذا القسم هو:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾

[سورة الطارق: 13]

فالسماوات ذات الرجوع والأرض ذات الصدع شاهدتان في قسم يؤكد حقيقة القرآن، وأن خبره بالبعث والحساب حق لا مرية فيه. وذكر ابن عاشور أن في المطر والنبات إيماءً إلى دليل إحياء الناس بعد موتهم، ثم جاء القسم لتحقيق أن القرآن حق، وأن ما أخبر به من البعث قول فصل. التحرير والتنوير

إن الذي يعيد الماء، ويخرج الحياة من الأرض، هو الذي أنزل القول الذي يخبر بالرجوع ويقيم حجته.

التأمل الأدبي

الرحمة التي تعرف طريق العودة

في وصف السماء بأنها ذات الرجوع إحساس بالتكرار الذي تقوم عليه الحياة. المطر لا يأتي الأرض مرة واحدة ثم ينقطع عنها إلى الأبد، وإنما

يرجع في مواسم قد تنتظم وقد تأخر بحكمة الله، فتعيش الخلائق على نعمة العود.

كم في الكون من أشياء لا نستشعر قيمتها لأننا نثق بعودتها: الصباح يعود، والليل يعود، والمطر يعود، والفصول تعود، والنوم يعيد إلى الجسد بعض قوته، والأرض تعيد الثمر بعد أن ننزعه منها.

إن جانباً كبيراً من طمأنينة الإنسان قائم على المواعيد الصامتة التي أودعها الله في الكون. لا يكتب عقداً مع الشمس كي تشرق، ولا يفاوض الليل كي ينقضي، ولا يوقظ البذرة بيده لتعرف موسمها. يعيش داخل نظام من الرجوع سبق وجوده، ويحيط به دون أن يطلبه.

ومع ذلك قد يرى النعمة العائدة عادةً طبيعية، فلا يصل منها إلى المنعم. يفرح بالمطر، لكنه لا يستحضر أن كل قطرة تجري بتقدير الله. يحصي منسوب المياه، ويحلل حركة السحاب — وهذا من العلم النافع — لكنه قد ينسى السؤال الذي لا يناقض العلم بل يعلو به: من خلق الماء والسحاب والريح والقوانين التي تنتظم بها؟

إن معرفة السنن لا تلغي المسنن، بل تزيد البصير معرفة بإحكام تديره. فالسما لا ترجع بالمطر لأنها استقلت بإرادة العطاء، والأرض لا تخلق الحياة من ذاتها؛ الجميع مخلوق مسخر يجري بأمر الله.

مرت في السورة كلمة الرجع قبل هذا القسم:

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾

[سورة الطارق: 8]

ثم جاءت:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾

[سورة الطارق: 11]

الأول رجع الإنسان، والثاني رجع المطر. وبينهما مناسبة توقظ القلب:
الماء يعود من السماء فتحيا الأرض، والإنسان يعود بأمر الله فيبعث
للحساب.

ليس رجع المطر هو البعث نفسه، ولا ينبغي أن نخلط بين المعنيين
التفسيريين، لكن المشهد الكوني يقرب إلى الحس معنى الإحياء بعد الموت.
فالإنسان يرى أرضاً هامدة لا تبدو فيها علامة حياة، ثم ينزل الماء، فإذا
اليابس يخضر، وإذا الصامت يتحرك، وإذا المستور تحت التراب يخرج إلى
النور.

المشكلة أن تكرار المعجزة الكونية يسرق منها اسم العجب. ما يتكرر
أمامنا نسميه عادة، ولو وقع مرة واحدة لقضينا أعمارنا نتحدث عنه.

لو رأى إنسان أرضاً ميتة تخضر للمرة الأولى، ولم يعرف من قبل دورة
المطر والنبات، لعدَّ المشهد من أعجب ما شهد. لكنه لأنه ولد داخل
المعجزة، ظنها أمراً عادياً.

وكذلك خلق الإنسان نفسه: ليس أقل إدهاشاً لأنه تكرر مليارات
المرات. التكرار لا ينزع عن القدرة عظمتها؛ إنه يدل على دوامها.

الأرض لا تستحي من تشققها

يبدو الصدع في عالم الأشياء علامة كسر: جدار مصدوع، وزجاج
متشقق، وصخرة انفلقت. لكن الأرض في الآية ذات الصدع، وصدعها
ليس خراباً؛ إنه باب الولادة.

تنشق كي يخرج النبات.

وهنا تتغير دلالة الكسر. فليس كل انصداع نهاية، ولا كل تشقق عيباً
ينبغي إخفاؤه. أحياناً لا تخرج الحياة إلا من موضع انفتح بعد انغلاق
طويل.

تنشق قشرة البذرة، فتبدأ الشجرة.

وتنصدع الأرض، فيظهر النبات.

وتتكسر في الإنسان صورة متكبرة عن ذاته، فتبدأ التوبة.

ويتصدع يقينه الزائف بقدرته، فيدخل إلى قلبه معنى الافتقار.

وتنهار خطة ظنها الطريق الوحيد، فيرى من الأبواب ما حجب عنه الإصرار.

هذا تأمل تربوي مستفاد من صورة الآية، لا تفسير مباشر للصدع؛

فالعنى التفسيري هو تشقق الأرض عن النبات. لكن الصورة تمنح النفس

لغة تفهم بها بعض ما يقع فيها: قد يكون الانكسار ممراً، لا قبراً.

الإنسان يخشى الصدع لأنه يجب صورته متماسكة. قد يستمر في خطأ سنوات كيلا يعترف بأن اختياره الأول لم يكن صائبًا. يفضل أرضًا مغلقة ميتة على أن تنشق كبرياؤه ويخرج منها اعتراف جديد.

لكن التوبة تحتاج إلى صدع في جدار التبرير. ما دام الإنسان محكم الإغلاق على روايته، لا تدخل الحقيقة ولا تخرج حياة.

• من يوقظ البذرة؟

تحت التراب عالم لا تراه العين. بذور ساكنة، وجذور دقيقة، ومادة تبدو كأنها لا تحمل وعدًا. ثم يصل الماء، فتبدأ حركات لا يسمعها أحد. تنفلق البذرة في ظلام الأرض، وتحرك الجذور إلى أسفل، ويرتفع الساق إلى أعلى، كأن في المخلوق الصغير هدايةً إلى جهتين: يعرف أين يثبت، وأين يطلب الضوء.

من علمه؟

قد يصف العلم مراحل الإنبات وصفًا دقيقًا، ويبين تأثير الرطوبة والحرارة والهرمونات النباتية، وهذا كشف لسنن الله في خلقه. لكن الوصف لا يحول السنن إلى آلهة، ولا يجيب وحده عن أصل وجود النظام وإحكامه. إن معرفة كيفية حدوث الشيء لا تجعل وجوده مستغنياً عن الخالق.

ويتعلم القلب من هذا ألا يحتقر البدايات الخفية. ما يظهر فوق الأرض بدأً تحتها، بعيداً عن التصفيق والعيون. قبل أن تصبح الشجرة ظلًا وثمرًا، كانت انشقاقاً صغيراً في بذرة لا يلتفت إليها أحد.

كذلك الأعمال العظيمة تبدأ غالباً في مواضع لا يراها الناس: فكرة صادقة، وقرار توبة، وصفحة كتبها مؤلف في عزلة، وطفل رتبته أم على معنى لا يظهر أثره إلا بعد أعوام، وموقف أمانة خفي يبني في صاحبه شخصية لا تنهار أمام الإغراء.

لسنا مكلفين أن نرى الثمرة فوراً. أحياناً يكفيننا أن نضع البذرة في موضعها، ونسقيها، ونترك لله توقيت الصدع.

الإسقاط التربوي المعاصر

استعجال الثمار

من أمراض العصر أن المسافة بين الطلب والاستجابة تقلصت في أشياء كثيرة. يضغط الإنسان زراً فيصل إليه الطعام، ويرسل رسالة فتبلغ طرف الأرض في لحظة، ويبحث عن معلومة فتظهر في ثوانٍ. وهذه نعم عظيمة، لكنها قد تعيد تشكيل توقعاته من الحياة كلها: يريد للعلم أن ينضج سريعاً، وللمشروع أن يثمر فوراً، وللعلاقة أن تتعافى بكلمة، ولنفسه أن تتغير بقرار واحد.

لكن الأرض ذات الصدع تعلم إيقاعاً آخر.

لا تشق البذرة التراب لحظة توضع فيه. يسبق الظهور زمن من العمل الخفي، وقد تفسد بذور، وقد تتأخر مواسم، وقد يحتاج الزرع إلى رعاية متكررة.

فلماذا يظن الإنسان أن قلبه سيكتمل في ليلة؟
أو أن عادةً بناها في عشرين عاماً ستنتهز بمحاولة واحدة؟

أو أن مشروعاً فكرياً عميقاً سيجد أثره فور نشره؟
أو أن تربية جيل تُقاس بنتيجة أسبوع؟

الإبطاء ليس دائماً فشلاً. قد يكون تحت السطح تكوّن لا تراه.

ومع ذلك لا ينبغي أن تتحول هذه الفكرة إلى ذريعة للكسل؛ فالفلاح لا يكتفي بالقول إن البذرة تحتاج وقتاً، بل يحرق ويسقي ويحجى الزرع. الصبر القرائي ليس انتظاراً فارغاً، بل عمل يعرف أن الثمرة لا تخضع لاستعجاله.

مشهد: الحقل الذي ظنه ميتاً

امتلك رجل قطعة أرض أصابها الجفاف زمناً طويلاً. وقف فوقها، فلم ير إلا تراباً متماسكاً وسيقاناً قديمة يابسة. قال له بعضهم: لم يعد في هذه الأرض خير؛ بعها قبل أن تخسر أكثر.

لكنه كان يعرف أن تحت التراب بذوراً قديمة، وأن موت المنظر لا يثبت موت الإمكان. أصلح ما استطاع من مجرى الماء، وانتظر موسم المطر. تأخر الغيث، واشتد عليه كلام الناس، حتى كاد يصدق أن الأرض فرغت من وعداء. ثم جاء المطر في ليلة، لا لأن انتظار الرجل أوجبه على الله، بل لأن الله قدّر مجيئه في وقته.

بعد أيام ظهرت شقوق صغيرة، ثم خرجت منها خضرة لم تكن العين تراها حين حكمت على الأرض بالموت.

هذا المشهد ليس وعداً بأن كل مشروع متعثر سينجح، ولا أن كل انتظار سينتهي بالصورة التي نحبها؛ فقد يقدر الله غير ذلك. لكنه مثال على قصور الحكم بالظاهر: ما لا تراه ليس بالضرورة معدوماً، وتأخر الأثر لا يعني دائماً غياب العمل في العمق.

كم من قلب حكمنا عليه بالقسوة، وكان الله يعد له مطراً لا نعرف وقته.
وكم من إنسان حكم على نفسه بأنه لا يتغير، لأنه لم ير الخسرة بعد أول
محاولة.

من الأدب مع القدرة ألا نحول حالتنا الراهنة إلى حكم أبدي.

المطر لا يختار أرضاً واحدة

حين ينزل المطر يعرض نفسه على الأرض، ثم تختلف استجابة المواضع.
أرض تمسك الماء وتنبت، وأرض يمر بها الماء فينتفع به غيرها، وأرض لا
تكاد تمسكه. والمطر في أصله واحد، لكن القابلية مختلفة.

والقرآن كذلك ينزل هدى، غير أن القلوب تختلف في استقباله. وليس
هذا تفسيراً مباشراً لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، ولكنه تشبيه
تروي ثابت المعنى تؤيده نصوص أخرى شبهت الوحي بالغيث.

قد يسمع شخصان الآية نفسها؛ فيخرج أحدهما منها بقرار يغير حياته،
ويخرج الآخر بإعجاب لغوي لا يمس سلوكه. وقد يقرأها المرء نفسه في
زمنين، فلا تتحرك فيه أولاً، ثم يمر بابتلاء يفتح في قلبه موضعاً للماء.

ليست المشكلة دائماً في غياب المطر، بل في سطح صار شديد الصلابة.

لهذا يحتاج التدبر إلى تهيئة: إنصات، وتواضع، وتوبة من الإصرار،
واستعداد لأن تكون الآية حاكمة لا محكومة بال رغبات. من جاء إلى القرآن
ليأخذ منه ما يؤيد موقفه فقط، يشبه أرضاً لا تفتح إلا الشق الذي تختاره.

أما القلب الحي فيسأل: ماذا يريد الله مني؟ لا: كيف أجعل الآية تقول
ما أريد؟

السماء تعطي والأرض تستجيب

في المشهد تكامل بديع: السماء ترجع بالمطر، والأرض تنصدع بالنبات.
لو نزل الماء على سطح لا يقبل، لم يظهر الزرع، ولو حملت الأرض البذور
ولم ينزل الماء، بقي الإمكان حبيساً.

العطاء من فوق، والاستجابة من تحت.

وكذلك الهداية: فضلها من الله، والعبد مأمور بأن يفتح لها قلبه، وأن
يطلبها، وأن يجاهد موانعها. لا يهتدي باستقلاله عن الله، ولا يحتج بالقدر
ليغلق بابه.

القرآن ينزل، لكن عليك أن تسمع.

والحق يظهر، لكن عليك ألا تنعمد العمى.

وباب التوبة مفتوح، لكن عليك أن تدخل.

والرزق مقدر، لكن عليك أن تسعى في أسبابه.

والعلم متاح، لكن عليك أن تتواضع لتتعلم.

إن العبودية ليست خلق النتيجة، فهذا لله، وإنما صدق الاستجابة لما
أمرك الله به.

الكون تمهيد للكلمة

لم يقسم الله بالسماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع ليقف الإنسان
عند المطر والنبات. فجواب القسم يأتي مباشرة:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾

[سورة الطارق: 13]

كأن دورة الحياة في الكون تهيئ النفس لاستقبال حياة من نوع آخر: حياة المعنى. وكما ينزل الماء من السماء فتحيا به الأرض، نزل القرآن من عند الله فتحيا به القلوب. وكما يشق النبات التراب، يشق القول الفصل طبقات الباطل والتلبس.

لكن ينبغي إبقاء الحدود واضحة: الآية الثالثة عشرة هي التي تصف القرآن بأنه قول فصل، أما تشبيه أثره بالغيث والنبات فهو تأمل تؤيده دلالات قرآنية عامة، وليس هو التفسير الحرفي للقسم.

إن السماء والأرض في المشهد شاهدتان على أن العالم ليس لعباً: المطر يأتي بقدره، والأرض تستجيب بسنن، والحياة تخرج في نظام. فكيف يكون الكتاب الذي يخبر بمصير الإنسان هزلاً؟

الكون محكم، والوحي حاسم، والإنسان مسؤول.

صدى الآية

ما أكثر ما يظنه الإنسان موتاً، وهو انتظار للماء، وما أكثر ما يراه انكساراً، وهو أول صدع تعبر منه الحياة.

فلا تحتقر مطراً يتأخر، ولا بذرة تعمل في الخفاء، ولا آية بدأت لتوها تشق قسوة قلبك.

الفصل التاسع

الكلمة التي تفصل

في عالم تختلط فيه الأصوات، لا تكون المشكلة دائماً غياب الكلام، بل عجزه عن الفصل. كل طرف يملك روايته، وكل باطل يستطيع أن يستعير مفردات الحق، وكل ظالم يجد من اللغة ما يخفف به صورة ظلمه. تتراكم الكلمات حتى يبدو الوضوح سذاجة، ويغدو التمييز بين الأشياء مهمة شاقة. وفي وسط هذا الضباب يأتي الحكم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾

[سورة الطارق: 13]

ثم ينفي عنه ما يناقض طبيعته:

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾

[سورة الطارق: 14]

إنه قول يفصل، لا قول يضاف إلى الضجيج. لا يقف عند حافة الأشياء، بل يدخل بينها فيميز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والجد من اللعب، والطريق من المتاهة. وإذا كان النجم ثاقباً للظلمة الحسية، فإن القرآن ثاقب لظلمات المعنى. وإذا كانت الأرض تنصدع عن النبات، فإن أوهاماً كثيرة تنصدع حين يمر عليها حكم الوحي.

• إلى ماذا يعود الضمير؟

الضمير في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾

عائد إلى القرآن، وإن لم يُذكر لفظه في الآيات السابقة؛ لأنه معلوم من المقام، ولأن السورة في سياق تثبيت ما أخبر به الوحي من البعث والحساب. وقد بين ابن عاشور أن المقصود تحقيق صدق القرآن وإبطال زعم المكذبين في أخباره، وفي مقدمتها خبر الإحياء بعد الموت. التحرير والتنوير

والفصل مصدر بمعنى التفرقة والتمييز والحكم. ووصف القرآن بأنه قول فصل يعني أنه يبين الحق من الباطل، ويحكم في مواضع النزاع، ويفصل بين طريق الهدى وطريق الضلال. وعبر بالمصدر للبالغة، فكأنه الفصل نفسه لما فيه من قوة البيان والحسم.

وفسر الطبري الآية بأن القرآن قول يفصل بين الحق والباطل ببيانه، ونقل عن ابن عباس تفسير الفصل بالحق، وعن قتادة تفسيره بالحكم. وهذه المعاني متقاربة: فهو حق في خبره، وحكم في دلالته، وفصل بما يقيمه من تمييز. تفسير الطبري لسورة الطارق

أما قوله تعالى:

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾

[سورة الطارق: 14]

فعناه أنه ليس لعباً ولا باطلاً ولا كلاماً خالياً من الجد والغاية. أخباره حق، ووعدده ووعيدده حق، وأوامره ونواهيه جد، وقصصه هداية وعبرة، وأمثاله بيان.

ولا يعني وصف القرآن بأنه فصل أن كل إنسان يستطيع أن يتنزع منه حكماً صحيحاً دون علم باللغة والسياق وأصول التفسير؛ فقد يسيء المرء الفهم، أو يقطع الآية، أو يحملها على هواه. القرآن في ذاته قول فصل، أما فهم البشر له فيحتاج إلى علم وتقوى وتجرد، ويعتريه الصواب والخطأ. فلا عصمة لفهم أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان لأهل العلم الراشدين من الفضل والبيان ما يجب حفظه والانتفاع به.

التأمل الأدبي

• لماذا يحتاج الإنسان إلى الفصل؟

لا يستطيع القلب أن يعيش طويلاً في منطقة يختلط فيها كل شيء بكل شيء. يحتاج إلى حدود يعرف بها ما يحب وما يكره، وما يطلب وما يترك، وما يستحق التضحية وما لا يستحق.

لكن النفس قد تكره الفصل حين يصطدم بهواها. تحب العبارات المرنة التي تسمح لها أن تفعل الشيء ونقيضه، وأن تحتفظ بصورة الصالح ومكاسب المخطئ معاً. تريد حقاً لا يكلفها، ومبدأً يتوقف حين يبدأ ثمنه، وتوبةً لا تقتضي ترك الذنب.

وهنا يأتي القرآن قولاً فصلاً.

لا يمنح الإنسان رفاهية أن يسمى العبودية لنفسه حرية، أو يسمى العدوان شجاعة، أو يجعل إخلاصه لله تابعاً لمصلحته. يضع الحدود التي تحاول النفس محوها، لا ليضيق عليها، بل لينقذها من التيه.

فالطريق الذي لا حدود له ليس طريقاً، والميزان الذي تتساوى فيه الأشياء ليس ميزاناً.

إن كثيراً من القلق الأخلاقي ينشأ حين يعرف الإنسان الحق، لكنه يرفض أن يفصل به بين ما يريد وما ينبغي. يظل يفاوض نفسه، ويجمع الأدلة التي تخفف عنه الحكم، ويبحث عن صياغة تجعل التنازل حكمةً والخوف واقعيةً.

وقد يكون في الواقع تعقيد يحتاج إلى فقه، وليست كل المسائل سواء في وضوحها. لكن وجود مسائل دقيقة لا يلغي المحكمات. ليست كل الحدود ضبابية، وليس كل خلاف مسوغاً لاتباع الأهواء.

القرآن يفصل، والنفس أحياناً تعيد الخلط بعد الفصل.

الكلمة التي تحكم ولا تُزِنُ فقط

قد يتعامل الإنسان مع القرآن بوصفه مصدراً للجمال والسكينة وحدهما. يستحضر آيات الرجاء حين يضيق، ويضع التلاوة خلف مشاهد مؤثرة، ويقتبس من القرآن ما يزين عبارته. وكل ذلك قد يكون خيراً إذا صح القصد وحُفظ المقام، لكن المشكلة أن يظل القرآن زينةً على أطراف الحياة، لا حكماً في مركزها.

القرآن لا يريد فقط أن يهدئ خوفك؛ يريد أن يغيّر ما يجب أن يتغير فيك.

لا يريد فقط أن يمنح عبارتك مهابة؛ يريد أن يحاكم العبارة وصاحبها. لا يريد فقط أن يُتلى في افتتاح القرارات؛ يريد أن تكون القرارات منضبطة به.

لا يريد فقط أن يحضر في مراسم الموت؛ يريد أن يحكم طريقة الحياة. حين نصفه بأنه قول فصل، فنحن نقر له بسلطة على تصوراتنا وأخلاقنا واختياراتنا. لا نأتي إليه ليتلقى أوامرنا فيقول ما نرغب، بل نأتي لنعرف ما يريد الله منا.

ومن أقسى صور هجر القرآن أن يحضر صوته ويغيب حكمه: تلى الآيات في المجلس نفسه الذي تُنتهك فيه قيمها، وتكتب على جدران مؤسسة لا تقيم العدل، ويحملها من يخاصم بها الناس ثم لا يسمح لها أن تخاصم هواه. قد يكون المصحف في صدر الغرفة، والقرآن في هامش القرار.

وقفه: بين الحقيقة والصورة

يفصل القرآن بين قيمة العمل وصورته. قد يتشابه إعلان في الظاهر، لكن يفترقان بالنية والحكم والأثر. إنفاق يراد به وجه الله، وإنفاق يراد به استبعاد المحتاج؛ كلاهما مال خرج من اليد، وبينهما في الميزان مسافة.

وفصل بين المحبة والتعلق الذي يفسد العبودية، وبين الرحمة والضعف أمام الظلم، وبين التواضع والمهانة، وبين الثبات والجمود، وبين التسامح والتنازل عن حقوق الآخرين، وبين حسن الظن والسذاجة.

ولأن اللغة البشرية قادرة على تزيين المتناقضات، يحتاج الإنسان إلى مرجعية لا تتشكل كل يوم بحسب شهواته.

القوة وحدها لا تحدد الحق؛ لأن الأقوى قد يظلم.
والكثرة وحدها لا تحدده؛ لأن الجماعة قد تفضل.

والقدم وحده لا يحدده؛ لأن الباطل قد يكون موروثاً.
والحدائث وحدها لا تحدده؛ لأن الجديد قد يكون فاسداً.
والانفعال وحده لا يحدده؛ لأن القلب قد يحب ما يضره.

المعيار الأعلى هو وحي الله بفهم صحيح منضبط، ثم تأتي أدوات العقل والخبرة لفهم الواقع وتنزيل الأحكام في مواضعها.

ولا تعني المرجعية القرآنية إلغاء العقل، بل تحريره من أن يتحول إلى خادم للشهوة. فالقرآن يخاطب العقل وقيم البرهان، والعقل الصحيح لا يناقض النقل الصحيح، وإن وقع الخطأ في فهم أحدهما.

الإسقاط التربوي المعاصر

زمن ما بعد الحقيقة

تستطيع الكلمة اليوم أن تبلغ الملايين قبل أن تُفحص. وقد تصنع صورة مجتزأة غضباً عالمياً، ثم يظهر بعد ساعات أنها انتزعت من سياقها، لكن التصحيح لا يبلغ عدد من بلغهم الخطأ. صار من السهل أن تُنتج رواية مقنعة، وأن يُعاد تكرارها حتى يألفها الناس، ثم تتحول الألفة إلى بديل عن الدليل.

في هذا المناخ لا يكفي أن تسأل: هل سمعت الخبر؟ بل:

من نقله؟

وما دليله؟

وما الذي حُذف من سياقه؟

وهل وافق ما أحب فبادرت إلى تصديقه؟

وهل أنكرت ما أكره قبل أن أنظر في حجته؟

وهل أطلب الحقيقة، أم أبحث عن مادة أهزم بها خصمي؟

القول الفصل يربي في المؤمن أخلاق التثبت. لا يبيح له كذباً لأنه
يخدم قضية صحيحة، ولا افتراءً لأن المتهم خصم، ولا اجتراءً لأن النص
الكامل يضعف أثر خطابه.

فالحق لا يحتاج إلى باطل ندافع به عنه.

وقد يظن المرء أن نشر خبر غير مثبت أمر صغير؛ ضغطة زر ثم يمضي.
لكنه قد يجرح عرضاً، أو يهدم ثقة، أو يؤجج فتنة، ثم يصعب عليه جمع ما
تبعثر. ولأن كل نفس عليها حافظ، فإن الكلمة الرقية ليست أقل مسؤولية
من الكلمة التي تقال باللسان.

إن سرعة الوسيلة لا تخفف ثقل الأمانة.

حين يصبح كل شيء رأياً

من ثمار النسبية المفرطة أن يُعامل الحق كأنه ذوق شخصي: لك حقيقتك
ولي حقيقتي. وهذه العبارة قد تصح في الخبرات الفردية والأذواق؛ لك أن
تحب لوناً لا أحبه، وأن ترى حادثة من زاوية وجدانية تختلف عن زاويتي.
لكنها لا تصح حين تُلغى بها الحقائق الأخلاقية والواقعية.

لا يمكن أن تكون العدالة والظلم صحيحين معاً بالمعنى نفسه.
ولا أن تكون الأمانة والخيانة مجرد طريقتين متساويتين للنظر.
ولا أن يكون الاعتداء حقاً للمعتدي لمجرد أنه صاغ روايته عنه.

القرآن قول فصل لأنه يقرر وجود حق لا تخلقه أهواء الناس، ومعايير لا تتحول كلما تغير ميزان القوة. وهذا يمنح المظلوم ملجأً أخلاقياً؛ فلو كانت الحقيقة يصنعها الأقوى، لما بقي للضعيف إلا انتظار أن يصير قوياً ليمارس الظلم نفسه.

لكن الحق في القرآن أعلى من الطرفين: يحكم للقوي أو عليه، ويحكم للضعيف أو عليه. ليس كل ضعيف محقاً لمجرد ضعفه، ولا كل قوي مبطلاً لمجرد قوته. الفصل عدل لا يتبع الهوية، بل يتبع الدليل والحكم.

القرآن ليس ككاتب شعارات جاهزة

من إساءة التعامل مع القول الفصل أن يُحتزل في شعارات تُرفع دون فقه. فالقرآن ككاتب هداية، لكن تنزيل هدايته على الوقائع المركبة يحتاج إلى معرفة بالنص والواقع، وإلى جمع الآيات ذات الصلة، والرجوع إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وفهم أهل العلم.

قد يقطع إنسان جزءاً من آية ليحكم على قضية كاملة، أو ينقل حكماً من سياق إلى آخر، أو يجعل خاطرة وجدانية تفسيراً ملزماً. وهو يظن أنه يعظم القرآن، بينما قد ينسب إليه ما لم يدل عليه.

تعظيم القول الفصل يقتضي التواضع أمامه: أن تقول فيما تعلم بعلم، وأن تتوقف فيما تجهل، وأن تفرق بين النص القطعي وفهمك البشري، وأن تعترف بالخلاف المعتبر حيث وقع.

ليس كل من رفع الآية قد احتكم إليها؛ ربما رفعها ليحتمي بها من السؤال.

والباحث الصادق لا يخشى أن يقول: لا أعلم. فالصمت عند الجهل من تعظيم القرآن، كما أن البيان عند العلم من خدمته.

«وما هو بالهزل»

بعد إثبات الفصل، جاء نفي الهزل:

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾

[سورة الطارق: 14]

والهزل مقابل الجد. والقرآن ليس لعباً في أخباره، ولا عبثاً في أوامره، ولا خطاباً يمكن أن يسمعه الإنسان ثم يظل موقفه منه بلا أثر إلى الأبد. هذه الآية لا تنفي جمال اللغة، ولا تمنع أن يأنس القلب بالتلاوة، بل تنفي أن يكون القرآن مادة للتسلية الخالية من المسؤولية. جماله جمال حق، وإيقاعه يحمل حكماً، وقصصه ليست حكايات للفراغ، ووصف القيامة ليس مشهداً أدبياً نتذوقه ثم نغلق الصفحة.

حين يقول الله:

﴿يَوْمَ تَلَى السَّرَِيرُ﴾

[سورة الطارق: 9]

فليس ذلك مشهداً رمزياً تؤوله بعيداً عن البعث، ولا تخوفاً بلاغياً بلا حقيقة. وحين يقول:

﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

[سورة الطارق: 10]

فليس مبالغة فنية؛ إنه خبر عن موقف آت.
والقارئ الذي يؤمن بأن القرآن ليس هزلاً لا يقرأ الوعيد كأنه موجه
إلى نوع آخر من البشر، ولا يقرأ الأمر ثم يسأل كيف يحتفظ بحياته كما
هي.

الجد الحقيقي أن تسمح للنص أن تكون له نتيجة.

الهزل في تلقي الجد

القرآن ليس هزلاً، لكن الإنسان قد يتلقاه تلقى الهازل. وقد لا يضحك
ولا يسخر؛ يكفي أن يسمع ولا يبالي، أو أن يتلو ولا ينوي الاستجابة، أو
أن يحول الآية إلى زينة ثم يعزلها عن القرار.

من الهزل العملي أن يقرأ عن الغيبة ثم يجعل أعراض الناس مادة
مجالسه.

وأن يقرأ عن العدل ثم يطلبه لنفسه ويمتنع عن خصمه.
وأن يقرأ عن الدنيا ثم يقيس قيمته كلها بما جمع منها.
وأن يقرأ عن الموت في جنازة، ثم يعود من المقبرة كأن الرسالة كانت
للميت وحده.

وأن يقرأ عن السرائر، ثم ينشغل بتفتيش نيات الآخرين.

ليس المقصود أن يتغير الإنسان كاملاً بعد تلاوة واحدة؛ القلوب تتردى بالتدرج، والنفس تتجاهد. لكن ثمة فرقاً بين ضعف يحزن صاحبه ويعيد المحاولة، وبين استخفاف لا يرى في عدم الاستجابة مشكلة. المؤمن قد تقصر به نفسه عن حكم القرآن، لكنه لا يتهم الحكم ولا يحوله إلى مزحة. يظل يعرف أن الخلل فيه، ويطرق باب التوبة.

مشهد: الآية في افتتاح الاجتماع

افتتح اجتماع مؤسسة بآيات عن الأمانة والعدل، فتلاها قارئ حسن الصوت، وأنصت الحاضرون. ثم بدأت مناقشة ترقية موظفين، فقدم صاحب النفوذ قريبه، واستبعد الأكفأ لأنه لا يملك من يتحدث باسمه. لم يعترض أكثر الحاضرين؛ بعضهم خشي على مكانه، وبعضهم رأى أن الأمر يتكرر حتى صار عادة، وبعضهم قال في نفسه إن الآيات التي تليت للبركة لا لتنظيم التفاصيل الإدارية.

كانت المعضلة في هذه الجملة الأخيرة.

حين يتحول القرآن إلى «بركة افتتاح» لا مرجعية قرار، يكون حاضراً بالصوت غائباً بالفعل. والآية لا ترفض التبرك بتلاوة القرآن، وإنما يسيء الناس حين يفصلون البركة عن الطاعة، كأنهم يطلبون من كلام الله أن يبارك ترتيباً يخالف عدله.

لو استقر في المجلس أنه:

﴿قَوْلٌ فَضْلٌ﴾

لسألهم: أين الأمانة؟ وأين الكفاءة؟ وكيف تهبّرون حقاً منحتموه
للمحسوبة؟ ولما كان تعظيم التلاوة في الصمت أثناءها فقط، بل في الشجاعة
بعدها.

ليس القرآن موسيقى مقدسة تغطي قبح القرار؛ إنه نور يكشفه.

القول الفصل داخل النفس

قبل أن يفصل القرآن في نزاعك مع الآخرين، يريد أن يفصل في النزاع
القائم داخلك. بين إيمانك وهواك، وبين ما تعرفه وما تفعله، وبين رغبتك في
رضا الله وجوعك إلى القبول البشري.

قد تكون المعركة الأشد تعقيداً ليست بينك وبين خصم خارجي، بل
بين صوتين فيك: صوت يعرف الطريق، وصوت يعدد لك كلفة السير فيه.
القول الفصل لا يلغي الكلفة، لكنه يمنعك من تسمية الانحراف طريقاً
آخر إلى الغاية نفسها.

قد تقول النفس: اعتذر، فقد أخطأت.

فيقول الكبير: سيضعف مقامك.

ويأتي الفصل: الرجوع إلى الحق قوة، والإصرار على الباطل ضعف وإن بدا
صلابة.

وقد تقول: أدّ الحق لأهله.

فيقول الطمع: ستخسر.

ويأتي الفصل: ما عندك ينفد، وما عند الله باق، ولا يبارك الظلم مألأ.

وقد تقول: اصدق.

فيقول الخوف: ستدفع الثمن.

ويأتي الفصل: النجاة ليست في كذبة تحفظ يومك وتهدم سريرتك.

ليس كل موقف بسيطاً، وقد تتعارض المصالح وتحتاج إلى فقه

ومشاورة. لكن القلب الذي قبل مرجعية القرآن لا يبدأ من السؤال:

كيف أنجو بنفسي؟ بل: أين الحق، وكيف أقوم به بأحكم سبيل مشروع؟

الأدب خادم الفصل

قد تبلغ العبارة الأدبية درجة من الجمال تجعل القارئ يحبها، لكن جمال

العبارة لا يضمن صحة معناها. وقد تكون الجملة خاطئة، لكنها مصوغة بإيقاع

يجعلها تبدو كالْحكمة.

وهنا تظهر مسؤولية الكاتب المسلم: ألا يستخدم جمال اللغة لتهريب معنى

لا يحتمله الوحي، وألا يجعل التأثير الوجداني بديلاً عن الدليل. الأدب

يستطيع أن يقرب الحق إلى القلب، لكنه لا يخلق الحق.

الكلمات نوافذ؛ إن كانت صافية مر منها النور، وإن كانت مزخرفة
معتمة شغلت الناظر بنفسها عن السماء.

وحين نكتب حول القرآن، ينبغي أن يبقى الفرق واضحاً بين:

• ما تدل عليه الآية تفسيراً.

• وما نستلهمه منها تأملاً.

• وما ننزله على واقعنا تربيةً واعتباراً.

فإذا خلطنا المستويات، نسبنا إلى الله خاطرنا البشري. وقد يكون الخاطر
بديعاً، لكنه لا يصير مراد الله لمجرد أنه أبكانا.

إن من تعظيم القول الفصل أن نترك له الفصل بين كلامه وكلامنا.

• كيف نقرأ كتاباً ليس بالهزل؟

نقرؤه ببطء يسمح للسؤال أن يصل.

ونجمع القلب ما استطعنا، وإن شرد أعدناه.

ونرجع إلى التفسير حين يخفى المعنى.

ونميز بين المحكم وما يحتاج إلى علم أوسع.

ونسأل عن موضع الآية من حياتنا دون أن نحصرها في تجربتنا.

ونتوب إذا ظهر لنا التناقض، بدل أن نغير المعنى كي نحفي أنفسنا.

ونعمل بما علمنا، فالمعرفة التي لا تثمر تصبح عبثاً.

ولا يلزم أن تخرج من كل قراءة بخاطرة مدهشة. قد يكون أعظم أثر

للآية قراراً صامتاً: أن ترد حقاً، أو تكف لساناً، أو تستغفر، أو تعيد ترتيب

نيتك.

المقصد ليس أن تقول دائماً شيئاً جديداً عن القرآن، بل أن يصنع القرآن
فيك إنساناً جديداً.

صدى الآية

القرآن لا يدخل حياتك ضعيفاً ينتظر منك الإعجاب، بل حكماً ينتظر
منك الإنصاف والاستجابة.

فإذا كان قولاً فصلاً، فلا تجعله زينة على حدود حياتك؛ افتح له مركز
القرار، ودعه يفصل أولاً بينك وبين هواك.

الفصل العاشر

الكيد الذي يلتهم أصحابه

بعد أن قررت السورة أن القرآن قول فصل لا هزل فيه، التفتت إلى الذين لم يكتفوا برفضه، بل تجاوزوا الرفض إلى التخطيط لإطفاء نوره:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾

[سورة الطارق: 15]

ثم جاء الجواب الذي يردُّ المؤامرة البشرية إلى حجمها الحقيقي:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

[سورة الطارق: 16]

إنهم لا يواجهون الحق بسؤال بريء يبحث عن جواب، ولا باعتراض علمي يريد الوصول إلى اليقين؛ إنهم يكيدون. والكيد ليس مجرد الاختلاف، بل تدبير خفي يراد به إبطال الحق أو الإضرار بأهله، مع إظهار خلاف المقصود أحياناً.

وفي مقابله تدبير الله الذي يحيط بهم من حيث لا يشعرون، ويمهلهم حتى يأتي أمره في الوقت الذي تقتضيه حكمته. فيخططون داخل ملكه، ويتحركون بقدرة خلقها، ويستعملون عقلاً وهبه، ويغيب عنهم أن الخلفاء الذي يستترهم عن أعين الناس لا يستترهم عن علم الله.

يا لضاآلة الكائد حين يظن أن سرية خطته أخرجتها من سلطان الخالق.

المعنى التفسيري

كيد المكذبين

الضمير في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾

عائد إلى المكذبين بالقرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد فسر الطبري كيدهم بمكرهم بالله ورسوله والوعد والوعيد، وفسره ابن كثير بمحاولتهم صد الناس عن القرآن ودعوتهم إلى خلافه. وذكر القرطبي أنهم كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فالآية تصف موقفًا يتجاوز التكذيب القلبي إلى عمل منظم لإبطال الدعوة، وتشويه الحق، وإيذاء حامله، وصرف الناس عنه. تفسير ابن كثير، تفسير الطبري

معنى إسناد الكيد إلى الله تعالى

قال الله تعالى:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

[سورة الطارق: 16]

يجب فهم هذا التعبير على الوجه اللائق بجلال الله، من غير تشبيه تدبير الخالق بكيد المخلوق، ولا نسبة نقص إليه سبحانه؛ فالله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

[سورة الشورى: 11]

كيد المخلوق قد يقوم على الظلم والعجز والخوف والخفاء عن الخصم، أما تدبير الله وجزاؤه للكائدين فعدل وحكمة وعلم وقدرة. لا يخفى عليه شيء، ولا يلحقه عجز، ولا يحتاج إلى احتيال من جهل أو ضعف.

وفسر الطبري كيد الله بهم بأنه إملاؤه لهم في معصيتهم وكفرهم حتى يأتيهم جزاؤه. وبين ابن عاشور أن التعبير في جانب الله مستعمل في الإهمال مع إرادة إنزال الجزاء حين تقتضي الحكمة، وأنه تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بالنصر. تفسير الطبري، التحرير والتنوير

فليس المعنى مماثلة فعل الله لفعلهم من كل وجه، تعالى الله عن ذلك، وإنما المعنى أنه سبحانه يدير في مقابلة كيدهم ما يبطل به مكرهم، ويجازيهم عليه عدلاً، ويقود الأمر إلى غايته وهم لا يحيطون بتدبيره.

هم يكيدون لإطفاء الحق، والله يبطل كيدهم ويظهر الحق في الوقت الذي يشاء.

التأمل الأدبي

الباطل لا يكتفي بأن يكون باطلاً

للباطل خوف دفين من النور، لأنه يعلم أن بقاءه محتاج إلى حجاب. الحقيقة تستطيع أن تقف عارية، أما الكذبة فتحتاج في كل يوم إلى ثوب جديد، وإلى حارس يحميها من سؤال صغير قد يفتح فيها ثقباً.

ولهذا لا يكتفي الباطل غالباً بأن يُعرض إلى جوار الحق؛ إنه يعمل على تشويه الحق كي يبقى. يصنع له اسماً منفراً، وينسب إلى أهله ما لم يقولوه، ويقتطع كلامهم، ويخلط خطأ بعضهم بأصل القضية، ويشغل الناس عن البرهان بحكايات جانبية.

إنه يعرف — ولو لم يعترف — أن المواجهة العادلة قد لا تخدمه، فينقل المعركة من ميدان الحجّة إلى ميدان الصورة.

وقد يقع هذا في الدين والسياسة والفكر والعلاقات الشخصية. حين يعجز المرء عن ردّ الفكرة، يهاجم صاحبها. وحين لا يجد في الكلام عيباً، يبحث في تاريخ قائله عما يشغل الناس عنه. وحين لا يستطيع مواجهة المظلوم بحقيقة، يصنع حوله سخابةً من الشائعات حتى تضعيف قضيته.

الكيد هو صناعة ظلام يحجب السؤال الصحيح.

لكن سورة الطارق بدأت بنجم ثاقب. وكأنّ بنيتها كلها تقول إن الظلام، مهما أحكم طبقاته، ليس محصناً من نور الله.

الكائد أسير كيده

يظن الكائد أنه يملك الخطة، ولا يرى أن الخطة تبدأ سريعاً في امتلاكه. يحتاج إلى أن يتذكر تفاصيل ما قال لكل طرف، وأن يصنع كذبة جديدة لحماية القديمة، وأن يراقب من حوله خشية أن ينكشف أمره، وأن يفسر كل حركة بوصفها تهديداً.

لقد أراد أن يحاصر غيره، فإذا هو يبني سجنه الداخلي.
أما الصادق فقد يدفع ثمن صدقه، لكنه لا يحتاج إلى ذاكرة تدير نسخاً
متعددة من الحقيقة. يستطيع أن ينام وقصته واحدة، وإن بقيت حياته
معرضة لأذى الكائدين.

ليس معنى ذلك أن كل صادق يأمن في الدنيا، أو أن كل كائد
ينكشف سريعاً. قد يطول أذى الباطل، وقد يموت المظلوم قبل أن يرى
ظهور حقه. لكن الكيد يحمل في داخله بذور فساد؛ لأنه يصادم الحق،
ويصنع في قلب صاحبه خوفاً وقسوة، ويستدعي مزيداً من الشر لحماية الشر
الأول.

وقد ينجح الكائد في إسقاط إنسان، لكنه يسقط في نفسه جزءاً لا يراه
الجمهور. كل مرة يستعمل فيها الخداع تتشكل روحه على صورته، حتى
يصبح الكيد عنده طبيعة، فلا يعود قادراً على الثقة بأحد؛ لأنه يقيس
الناس إلى ما يفعله هو.

من اعتاد نصب الفخاخ يرى الطريق كله فخاً.

الخفاء البشري ليس خفاءً عند الله

الكيد يحجب الغرف المغلقة، والرسائل المخدوفة، والاتفاقات التي لا
يوقعها أحد، والعبارات التي تحتل الإنكار. يبني قوته على فارق المعرفة:
نحن نعرف ما نخطط، وهم لا يعرفون.

لكن هذا الفارق قائم بين البشر فقط. أما الله فيعلم ما أعلنه وما
أسروا، وما اتفقوا عليه، وما لم ينطقوا به بعد، ويعلم الطريق الذي ستسلكه
الخطئة، وأثرها الذي لم يحسبوه، واللحظة التي تتغير فيها إلى سبب لهزيمتهم.

إنهم يكيدون تحت السماء التي أقسم الله بها، وعلى الأرض التي تتصدع بأمره، وبأجساد خلقها من ماء دافق، ويعقول تحفظ الملائكة أعمالها، وفي زمان يقودهم إلى يوم تلى فيه السرائر.

فأين يذهبون بالكيد؟

إن أعظم سخرية في موقف الباطل أنه يستخدم نعم الله في محاربة أمر الله. يفكر بعقل الله خالقه، ويتكلم بلسان الله أنشأه، ويتحرك في أرض الله، ثم يتوهم أنه أفلت من سلطان الله.

ولولا أن الله يمهله ما خطا خطوة.

الإسقاط التربوي المعاصر

هندسة التضليل

أصبح الكيد في العصر الحديث أكثر قدرة على التخفي داخل الأدوات المهنية: مراكز تصنع الرسائل، وحسابات آلية تضخم اتجاهها، وصور تجتزأ، ومقاطع تُحرر لتغيير المعنى، وأرقام تُنتقى بحيث تقول نصف الحقيقة وتخفي نصفها الآخر.

قد لا يكذب الخطاب في جملة واحدة، لكنه يرتب الحقائق بطريقة تنتج انطباعاً كاذباً. يضع خبراً صغيراً في العنوان، ويخفي خبراً حاسماً في الهامش، ويكرر اتهاماً حتى يظنه الناس ثابتاً مجرد أنهم سمعوه كثيراً.

والكيد الحديث لا يحتاج دائماً إلى غرفة سرية؛ قد يجري أمام الجميع، لكن تعقيدته يحجب مقصده.

لهذا يحتاج المؤمن إلى بصيرة لا تساوي بين كثرة التكرار وقوة الدليل. لا يندفع مع موجة التشويه، ولا يشارك في حملة لأنه وجد فيها جماعته، ولا يستبيح الكذب على خصمه بحجة أن الخصم يفعل مثله.

فالأية التي تكشف كيد المكذبين لا تمنح المؤمن رخصةً في كيد ظالم. الحق لا ينصر بخيانة قيمه.

ومن أخطر الانتصارات الوهمية أن تهزم خصمك بأداة تهزم أخلاقك.

لا تجعل كل خلاف مؤامرة

مع إثبات القرآن لوجود الكيد، ينبغي ألا يتحول المؤمن إلى إنسان يرى خلف كل اختلاف مؤامرة. ليس كل من خالفك كائناً، ولا كل نقد مشروعاً لإسقاطك، ولا كل خطأ تدبيراً سرياً.

قد يختلف الناس لاختلاف فهمهم، أو نقص معلوماتهم، أو لتجاربهم ومصالحهم، وقد يسيئون التقدير دون أن يخططوا للشر. والتوسع في تفسير الأحداث بالمؤامرة قد يفسد العقل، ويمنع مراجعة الذات؛ لأن الإنسان ينسب كل فشل إلى أيد خفية، فلا يسأل عن أخطائه الظاهرة.

العدل يقتضي ألا تثبت الكيد بلا قرينة. والوعي يقتضي ألا ننفي وجوده حين تظهر أدلته.

الموقف المتزن لا هو سذاجة تصدق كل ظاهر، ولا ريبة مرضية تسيء الظن بكل أحد. إنه ثبت، وقراءة للوقائع، وحفظ للقلب من أن يختلق نيات لا يعلمها.

والقرآن حين يقول:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾

يتحدث عن مكذبين مخصوصين ظهر كيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ولا يعطي كل فرد حق أن يضع نفسه في مقام النبوة، ثم يصور مخالفيه جميعاً أعداءً للوحي.

قد تكون قضيتك عادلة، لكنك لست معصوماً. وقد يظلمك خصمك، لكن ذلك لا يجعل كل قراراتك صواباً.

مشهد: الاجتماع المغلق

اجتمع عدد من أصحاب النفوذ لإسقاط رجل رفض تمرير صفقة فاسدة. لم يستطيعوا اتهامه في أمانته مباشرة؛ فسجله معروف، ولذلك خططوا لطريق آخر: يُقال إنه صعب التعامل، وأنه يعطل المصلحة العامة، وإن مرونته قليلة، ثم تُجمع مواقف متفرقة من سنوات لتكون صورة توحى بأنه غير صالح للواقع.

لم تتضمن خطتهم كذبة صريحة واحدة، لكنها رتبت أجزاءً من الحقيقة للخدمة باطل كامل.

خرجوا من الاجتماع مطمئنين؛ كل خطوة تبدو قانونية، وكل عبارة قابلة للدفاع عنها.

لكن واحداً منهم نسي أن الخطوة، وإن اختفت عن الرجل، لم تختف عن الله. وأن النجاح الإداري في إبعاده لا يعني نجاحاً أخلاقياً في ميزان الحق.

وقد يُعزل الرجل فعلاً. فالآية لا تعد كل مظلوم بأن ينتصر في منصبه، ولا أن كل مؤامرة ستنتهار فوراً. لكن الكائدين لم يحوا الحقيقة؛ نقلوها إلى كتاب ستظهر فيه النيات والأدوار. وربما يجعل الله إبعاد الرجل نجاة له من ضرر أكبر، أو يفتح له باباً آخر، أو يكشف فسادهم بعد زمن. وربما لا يرى شيئاً من ذلك في الدنيا، ويبقى الجزاء للآخرة.

المؤمن لا يحدد لله صورة إبطال الكيد ولا مواعده. يكفيه أن يعلم أن الكيد لم يخرج عن إحاطته.

حين يُستخدم بعض الشر في هزيمة نفسه

كم من خطة قصد أصحابها بها إطفاء الحق، فكانت سبباً في انتشاره. وكم من كلمة قيلت لتشويه إنسان، فدفعت المنصفين إلى البحث عنه ومعرفة حقيقة أمره. وكم من اضطهاد أراد عزل فكرة، فرفعها إلى وعي لم تكن ستبلغه في ظروف الهدوء.

لا يعني ذلك أن الشر صار خيراً، ولا أن فاعله يؤجر على نتيجته التي لم يردّها. الشر شر من جهة قصد صاحبه وفعله، لكن حكمة الله أوسع من قصده؛ يستطيع سبحانه أن يجعل من الطريق الذي حفره الباطل لدفن الحق مجرىً لظهوره.

الكائد يملك فعله، لكنه لا يملك شبكة نتائجه.

قد يرمي حجراً في ماء، ويحسب الدائرة الأولى، ولا يرى كيف تمتد الدوائر إلى شواطئ بعيدة. أما الله فيعلم البداية والنهاية، ويصرف الأمور بحكمته.

ولهذا لا يجوز للمؤمن أن يئأس لمجرد أن الباطل رتب أدواته جيداً.
جودة التخطيط البشري ليست حكماً على النتيجة النهائية. كم من جيش
هزمته ثغرة لم يحسبها، وكم من سلطة أضعفها الوسيلة التي بنت بها خوف
الناس، وكم من كذبة سقطت بتفصيل صغير نسي صانعها إخفاءه.
ليس معنى الثقة بالله إهمال التخطيط، بل ألا يُعبد تخطيط الخصم.

المؤمن بين التوكل واليقظة

قد يساء فهم الثقة بتدبير الله، فيظن بعضهم أن المطلوب ترك الأسباب
وانتظار انهيار كيد الباطل وحده. لكن السيرة النبوية لا تعلم ذلك؛ فقد
أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالأسباب، وكنم ما ينبغي كتمه، واستشار،
ورتب الصفوف، وبعث العيون، واحتاط من الخطر، مع كمال توكله على
الله.

التوكل لا يعني كشف ظهره للكيد، بل ألا يخترق الكيد قلبك حتى
يملاؤه خوفاً من الخلق.

واجه الخطة بخطة مشروعة.

واجمع المعلومة.

واجم الضعفاء.

واكشف الفساد بالدليل.

واستعن بأهل الخبرة.

لكن لا تكذب لأنهم كذبوا، ولا تخن لأنهم خانوا، ولا تتجاوز حدود الله
بحجة حماية دعوة الله.

إن الله لا يحتاج إلى معصية ننصر بها دينه.

وإذا أخذت بالأسباب ثم غلبك الكائد في مرحلة، فلا تظن أن القصة انتهت. قد تكون خسرت جولة في زمن محدود، لكنك لم تخسر ميزان الله ما دمت ثابتاً على الحق.

الكيد الذي يبدأ في النفس

قبل أن ينشغل الإنسان بكيد الآخرين، عليه أن ينتبه إلى كيد نفسه. فالنفس قد تدبر لصاحبها تبهيرات خفية، وتريه الباطل في صورة مصلحة، وتؤجل التوبة حتى يفوته زمنها.

تقول له: افعل هذه المرة فقط.

ثم تقول: ما دمت فعلت، فلا معنى للمقاومة.

ثم تقول: أنت أسوأ من أن تقبل توبتك.

فتقتله من الذنب إلى الإصرار، ومن الإصرار إلى اليأس.

وتكيد به حين تجعله يفرح بعيوب خصومه أكثر مما يحزن لعبيه، وحين تشغله بالمؤامرات المحيطة به عن الفساد الذي ينمو في داخله، وحين تقنعه أن كل نقد له جزء من خطة إسقاطه.

أشد الكيد خطراً ما دخل إليك بصوتك.

والنجاة تبدأ بأن تعرض خواطرك على القول الفصل، وألا تجعل كل ما يصدر من الداخل جديراً بالتصديق. فالقلب يحتاج إلى وحي يهديه، وعقل يراجع، وتقوى تمنعه من تزيين الهوى.

قوله تعالى:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

[سورة الطارق: 16]

ليس عبارة تخدير للمؤمن كي ينام في وجه الخطر، بل تثبيت كيلا تتحول يقظته إلى هلع. يراه، ويقدره، ويستعد له، لكنه لا يمنحه حجماً أكبر من حقيقته.

إنهم يكيّدون، نعم.

لكنهم لا يخلقون النتائج.

ويخططون، لكنهم لا يحيطون بالغيب.

ويخفون، لكنهم لا يختفون عن الله.

ويؤذون، لكنهم لا يملكون المصير.

وقد ينتصرون مؤقتاً، لكنهم لا يكتبون خاتمة الوجود.

هذه الطمأنينة تمنح المؤمن شجاعةً باردة لا يبعثرها الذعر. لا يتكر الخطر، ولا يركع له. يعرف أن له رباً يرى ما لا يرى، ويعلم ما لا يعلم، ويقدر حين يعجز.

صدى الآية

كيد البشر مهما دقَّ يجري داخل علم الله، ومهما اشتدَّ يجري داخل

قدرته، ومهما طال يجري إلى الموعد الذي وضعه الله له.

فلا تجعل خطة خصمك أكبر في قلبك من تدبير ربك، ولا تواجه
ظلام الكيد إلا بنور الحق وعدل الوسيلة.

الفصل الحادي عشر

رُويِدًا... إِنَّ اللَّهَ كَلِمَتُهُ الْأَخِيرَةُ

تنتهي السورة بكلمة تبدو هادئة في صوتها، لكنها تحمل وراءها قوة المصير كله:

﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُويِدًا﴾

[سورة الطارق: 17]

بعد السماء والطارق، وبعد الخلق والرجوع، وبعد السرائر والقوة والناصر، وبعد المطر والنبات والقول الفصل والكيد، لا يأتي الختام بصيحة صاخبة، يأتي بأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يمهلهم.

• رويِدًا.

قليلاً. قريباً. لا تستعجل.

إنها كلمة تضع الزمن كله في حجمه. ما يراه الإنسان طويلاً ليس طويلاً في ميزان الأبد، وما يراه تأخراً قد يكون تقديراً محكماً، وما يراه إفلتاً قد يكون إمهالاً يسير بصاحبه إلى موعد لا يتقدم ولا يتأخر.

ليس على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحمل همَّ إنزال الجزاء، ولا على المؤمن أن يتولى إدارة الكون. عليه البلاغ والعمل والثبات، أما الموعد فبيده الله.

المعنى التفسيري

أمر بالإمهال

خطب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ﴾

أي: لا تعجل بطلب العقوبة لهم، وأنظرهم إلى ما يقدره الله. ثم جاء التوكيد:

﴿أَمَلَهُمْ رُؤُودًا﴾

أي أمهلهم إمهالاً قليلاً.

وفسر الطبري رويداً بالقليل والقريب، وبين أن المعنى: أنظرهم إلى الموعد الذي يحل فيه ما قضاه الله عليهم. وفسر ابن كثير الآية بأنهم ينظرون قليلاً حتى يروا عاقبة أمرهم. تفسير الطبري، تفسير ابن كثير

والآية في سياق تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وثبئته أمام كيد المكذبين، وليست إذناً بترك البلاغ أو تعطيل الواجب، وليست قاعدة تمنع دفع العدوان بالوسائل المشروعة. معناها أن الجزاء الإلهي لا يحتاج إلى استعجال الرسول، وأن كيدهم محدود الأجل، وأن الله يتولى تدبير عاقبته. كذلك لا يصح أن يعين الإنسان من عند نفسه صورة العقوبة أو وقتها لكل ظالم، ثم ينسب ذلك إلى الله جزماً. قد يعاقب الله في الدنيا، وقد يستدرج، وقد يفتح باب التوبة، وقد يؤخر الجزاء إلى الآخرة. نحن نؤمن بعدله ووعدده، ولا نملك تفاصيل الغيب إلا بنص.

• لماذا يستعجل المظلوم؟

لأن الألم حاصر، والعدل الموعود غائب عن عينه. يرى الظالم يتحرك بحرية، ويضحك، وتُفتح له الأبواب، بينما يدفع المظلوم ثمناً لم يختره. كل يوم يمر دون ظهور الحكم يبدو كأنه شهادة جديدة للباطل. يستعجل لأن قلبه لا يعيش الزمن بوصفه أرقاماً، بل جراحاً. الساعة على التألم أطول من الساعة على الآمن، والعام في السجن ليس كعام خارجه، واللييلة التي ينتظر فيها الخائف خبراً ليست كسائر الليالي. ولذلك لا ينبغي أن نلقي على المظلوم كلمات الصبر ببرود، كأن تألمه نقص في يقينه. حتى النفوس المؤمنة تضيق وتمتد للفرج وتسأل: متى؟ والقرآن لا ينكر وطأة الانتظار، لكنه يضع داخلها معنى يحفظها من الانهيار:

﴿أَمِلْهُمْ رُودًا﴾

[سورة الطارق: 17]

ليس الباطل خالداً. وليس تأخر الجزاء نسياناً. وليس سكوت السماء
غياباً عن المشهد.

لكنك لا تملك الساعة.

وهذه هي المسافة الأصعب في الإيمان: أن تثق بالوعد حين لا تعرف
توقيته.

الإهمال ليس إهمالاً

شاع على الألسنة قولهم: يمهّل الله ولا يمهّل. وليس هذا اللفظ حديثاً
نبوياً فيما نعلم، لكنه من حيث المعنى العام يعبر عن حقيقة دل عليها
القرآن: قد يؤخر الله أخذ الظالم، لكنه لا يغيب عنه ولا يخرج من علمه
وعدله.

غير أن العبارة تحتاج إلى فهم كامل. فالإهمال ليس دائماً مقدمة لعقوبة
دنيوية يراها الناس. قد يعيش ظالم عمراً طويلاً، ويموت دون أن يشهد
المظلوم سقوطه. ولو حصرنا عدل الله في المشهد الدنيوي لاضطربت قلوبنا
أمام قصص كثيرة لم تكتمل فصولها هنا.

الآخرة ليست ملحقاً للعدالة؛ إنها موطن تمامها.

في الدنيا تتشابك الابتلاءات، وقد يؤخر الله العقوبة لحكمة، ويفتح للكافر
والفاسق باب الرجوع، ويختبر المؤمن في صبره وعمله، ويقم الحجّة، ويظهر
من الحقائق ما يشاء. أما في الآخرة فلا يضيع حق، ولا ينجو أحد بحيلة.

فلا تجعل تأخر الحساب دليلاً على غيابه.

إن المهلة نفسها قد تكون حجة على صاحبها: مُنح وقتاً للتوبة فلم يتب، وأُري الآيات فلم يرجع، وجاءته التحذيرات فزاد طغياناً. وكل يوم ظنه علامة رضا كان فرصة نجاة أهدرها.

• لماذا لا يأتي الحكم في موعدنا؟

لأن معرفتنا لا تحيط إلا بجزء صغير من القصة. نرى الضرر المباشر، ولا نرى شبكة الآثار كلها. نطلب نهاية سريعة، وقد تكون الحكمة في امتداد الموقف حتى تتكشف صفوف، وتنضج نفوس، وتقوم حجج، وتسقط أقنعة، ويتعلم المؤمنون ما لم يكونوا ليتعلموه في زمن الراحة.

هذا لا يعني أن كل تأخير نعرف حكمته، ولا أن لنا أن نخترع تفسيراً لكل ألم. بعض الأقدار يبقى سر حكمتها خارج علمنا. الإيمان لا يعني أنك ستفهم كل شيء، بل أن تثق بمن يعلم كل شيء.

قد يسأل الإنسان: لماذا لم ينصرنى الله في الوقت الذي احتجت فيه إلى النصر؟

والسؤال موجه، لا يُجاب عنه ببساطة سهلة. قد يكون النصر جاء في صورة لم يسمها هو نصرًا: حُفظ دينه وإن ضاع حق من حقوقه، أو كُشف له وجه كان يثق به، أو أُخرج من مكان كان سيهلكه، أو تعلم ألا يجعل مصيره بيد بشر.

وقد لا يرى وجه الخير في الدنيا أصلاً. وهنا يبقى الإيمان بوعده الله، لا تفسيرنا التفصيلي للحادثة، هو موضع السكينة.

لسنا مأمورين أن نزعّم معرفة الحكمة الخاصة في كل مصيبة؛ مأمورون
ألا نتهّم حكمة الله لأننا جهلناها.

الإسقاط التربوي المعاصر

زمن النتيجة الفورية

في عصر السرعة يريد الناس للعدل أن يظهر فور انتشار القضية. تقوم
حملة، ويتشكل رأي عام، ويصدر الجمهور حكمه خلال ساعات. وقد تكون
هذه السرعة سبباً في إنصاف مظلوم، لكنها قد تكون أيضاً سبباً في ظلم
بريء قبل اكتمال الأدلة.

إن الاستعجال لا يخطئ في طلب النتيجة وحدها، بل قد يفسد الوسيلة.
وحين يتأخر الحكم المؤسسي، يتولى الجمهور دور القاضي، ويصبح الاتهام
إدانة، والغضب دليلاً، والكثرة حجة.

تعلّمنا رويداً فضيلة التثبت، كما تعلّمنا الصبر.

رويداً قبل أن تنشر.

رويداً قبل أن تحكم.

رويداً قبل أن تحول رواية طرف واحد إلى حقيقة مكتملة.

رويداً قبل أن تهدم سمعة لا تستطيع بناءها إذا ظهر الخطأ.

رويداً قبل أن تعتبر تأخر النصر إذناً باستخدام وسيلة محرمة.

لكن «رويداً» لا تعني البرود أمام الظلم. يمكنك أن تتحرك بحزم دون أن
تفقد التثبت، وأن تنصر المتضرر دون أن تفترى، وأن تطالب بالحاسبة دون
أن تستمتع بالإهانة.

العدل بطيء أحياناً لأنه يرفض أن يبيني حكمه على الانفعال وحده.

الفرق بين الصبر والتمول

قد يستعمل المستفيد من الظلم خطاب الصبر لينع المظلوم من المطالبة بحقه. يقول له: اصبر، بينما المعنى الذي يريده: اسكت كي تستمر مصلحتي. وهذا استعمال فاسد للقيمة؛ فالصبر في القرآن ليس قبولاً بالظلم بوصفه حقاً، ولا تركاً لكل وسيلة مشروعة لدفعه.

الصبر أن تضبط نفسك وأنت تعمل.
أن تستمر دون أن تبيع مبادئك للاستعجال.
أن تدفع الظلم ولا تتحول إلى صورة أخرى منه.
أن تبني القوة ولا تعبدها.
أن تنتظر الثمرة وأنت ترعى البذرة.

أما التمول فهو ترك الواجب مع القدرة، ثم تسمية العجز حكمة.
إن الخطاب في الآية إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالإمهال جاء بعد قيامه بالبلاغ ومواجهة التكذيب واحتمال الأذى. لم يكن صلى الله عليه وسلم ساكناً عن الدعوة، وإنما كان ثابتاً لا يملك المكذوبون أن يدفعوه إلى ترك الحق ولا أن يحمله استعجال العقوبة على تجاوز أمر الله.

الصبر ليس أن تتوقف؛ الصبر أن تستمر على الوجه الصحيح حين تأخر النتيجة.

مشهد: الحكم الذي لم يصل

انتظر رجل سنوات حكماً يعيد إليه أرضاً سُلِبَت منه بوثائق مزورة. انتقل الملف بين المحاكم، ومات بعض الشهود، وتغير القضاة، بينما بنى المعتدي على الأرض واستثمرها، حتى بدا كأن الزمن نفسه يعمل لمصلحة الباطل. كان الرجل يفكر أحياناً في طريق مختصر: تهديد، أو رشوة مضادة، أو شهادة ملفقة تعادل تزوير خصمه. كان يقول لنفسه: ما داموا لم يصلوا إلى حقي بالوسائل النظيفة، فلماذا أبقى وحدي نظيف اليد؟ لكن لو انتصر بالطريق نفسه، فما الذي يبقى من الفرق بينه وبين من ظلمه؟

إن قوله تعالى:

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُؤُودًا﴾

[سورة الطارق: 17]

لا يضمن لهذا الرجل حكماً دنيوياً في وقت معين، ولا يصف خصمه بالكفر لمجرد ظلمه؛ فالآية في أصل سياقها عن الكافرين المكذبين. لكن أثرها التربوي يعلمه ألا يحول تأخر العدالة إلى رخصة للخيانة. يطالب بحقه، ويوثق، ويستعين، ويصبر، ولا يفسد سريره ليصلح خسارته.

قد يسترد الأرض، وقد لا يستردها في حياته. لكن هناك أرضاً أخطر من الأرض المسلوقة: قلبه. إذا استرده من الكراهية والخيانة، لم ينتصر الظالم عليه انتصاراً كاملاً.

لا ينبغي لهذا المعنى أن يهون الحقوق المادية؛ الأرض حق ويجب طلبه. لكنه يذكر بأن خسارة الحق لا تبرر خسارة النفس.

حين يتأخر سقوط الباطل

يربط الناس قوة الباطل بمدة بقائه. يقولون: لو كان ضعيفاً لسقط. لكن طول العمر لا يعني الصحة. كم من مرض مزمن بقي أعواماً ولم يتحول بقاءه إلى عافية، وكم من بناء ظل واقعاً بينما كان الصدع يأكل أساسه في صمت.

قد يعيش النظام الفاسد طويلاً لأنه بنى أجهزة تحميه، أو لأن بديله لم ينضج، أو لأن الخوف فرق الناس، أو لأسباب أخرى يعلم الله تمامها. لكن البقاء في ذاته ليس برهان مشروعية.

والباطل كثيراً ما يبدو في آخر مراحل أشد صلابة؛ لأنه يضاعف أدوات القمع حين يشعر بالخطر. يراه الناظر من الخارج قوةً متزايدة، بينما قد يكون ذلك ارتباطاً يخشى الاعتراف بضعفه.

ومع هذا لا يحق لنا الجزم بقرب سقوط سلطة أو شخص اعتماداً على شعورنا وحده، ولا أن نحول الآيات إلى تنبؤات سياسية بأوقات محددة. الغيب لله، وقد يطول ما حسبناه قريباً.

رويداً ليست جدولاً زمنياً ثملكه؛ إنها تصغير للدنيا كلها أمام الآخرة.
كل ما بقي إلى نهاية العالم قليل، وإن امتد في أعمارنا. وكل ظالم قريب
من نهاية سلطانه، لأن عمر الإنسان نفسه قصير، وإن لم نعرف عدد أيامه.

المؤمن لا يطلب الانتقام لذاته باسم الله

حين يقرأ المظلوم آيات الوعيد قد يجد فيها عزاءً، لكنه يحتاج إلى مراقبة
قلبه كيلا تتحول الثقة بعذل الله إلى شهوة انتقام تتكلم باسمه.

ليس كل من آذاك عدواً لله.

وليس كل خصومة شخصية معركة بين الإيمان والكفر.
وليس لك أن تجزم بأن الله سيعاقب فلاناً بكذا؛ فهذا من الغيب.
وقد تكون مظلوماً في جانب، ومخطئاً في جانب آخر.

المؤمن يسأل الله العدل، ويجوز له أن يدعو على من ظلمه بقدر مظلمته،
والعفو أفضل في مواضع تتحقق بها المصلحة ويستطيعها القلب دون إضاعة
حقوق الآخرين. لكنه لا ينصب نفسه ناطقاً باسم القدر، ولا يفسر كل
مرض يصيب خصمه بأنه عقوبة من الله.

ربما كان ابتلاءً، وربما رفعاً للدرجات، وربما له حكم لا نعلمها. نسبة
حادثة معينة إلى العقوبة الإلهية تحتاج إلى دليل، ولا يكفي فيها توافقها مع
رغبة المتألم.

نحن نؤمن أن الظلم لا يضيع عند الله، أما تفاصيل الجزاء فإلى علمه وحكمته.

رويداً مع النفس أيضاً

ليس الإمهال للخصوم وحدهم معنى نحتاج إليه؛ نحتاج إلى شيء من الرفق المتزن في إصلاح أنفسنا.

قد يستيقظ الإنسان من غفلة طويلة، فيريد أن يصلح كل شيء دفعة واحدة. يضع لنفسه برنامجاً يفوق طاقته، فإذا تعثر بعد أيام حكم على توبته بالفشل وعاد إلى ما كان عليه.

رويداً.

لا بمعنى تأجيل الواجب أو الاستمرار في الحرام، بل بمعنى بناء الثبات خطوة خطوة. اقطع الذنب الآن، ثم ابن ما يحيك من الرجوع إليه. ابدأ بالفرائض، ورد الحقوق، ونظم بيتك، واستعن بصحبة صالحة، ولا تحمل نفسك من النوافل ما يجعلها تنقطع عن الأصل.

النفس كالأرض ذات الصدع؛ تحتاج ماءً متكرراً، لا سيلاً عابراً يجرف تربتها ثم ينقطع.

الاستقامة ليست انفعالاً مرتفعاً، بل اتجاهاً يحفظه الإنسان في ارتفاعه وانخفاضه. وقد يمشي ببطء، لكنه إذا كان يمشي إلى الله فبطؤه خير من قفزة تعيده إلى الوراء.

الطمأنينة ليست أن تعرف ماذا سيحدث، بل أن تعرف في يد من يقع ما سيحدث.

قد تبقى الأسئلة، وقد يظل الخوف البشري، وقد يحزن القلب؛ لكن تحت ذلك كله أرض ثابتة: الله يعلم، والله قادر، والله عدل، والله حكيم، ولا يخرج الكيد عن تدبيره.

هذه الطمأنينة لا تجعل المؤمن باردًا أمام قضايا الناس، بل تمنعه من الاحتراق الذي يعطل عمله. يعرف أنه مسؤول عن موقفه لا عن التحكم في التاريخ كله. يقول كلمة الحق، وينصر ما يستطيع، ويحجي نفسه من الحرام، ثم يسلم ما لا يملكه إلى الله.

كم يتعب الإنسان حين يحمل ما ليس من وظيفته: يريد أن يضمن استجابة الناس، وأن يحدد ساعة النصر، وأن يرى كل ظالم ساقطًا قبل أن يموت. فإذا لم يقع ما أراد، ظن أنه فشل أو ترك.

أما السورة فتقول له: إنهم يكيدون، والله يدبر، فمهلهم.

ليست المعركة بلا رب، ولا الزمن سائبًا، ولا النتيجة النهائية متروكة لأكثر الأطراف ضيقًا.

الله يملك الكلمة الأخيرة؛ لا لأننا نستطيع دائمًا قراءة طريقة مجيئها، بل لأنه سبحانه يملك الخلق والأمر، والبداء والرجع، والسر والعلن، والسماء والأرض، والدنيا والآخرة.

من الطارق إلى رويداً

بدأت السورة بطريقة نور مفاجئة:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾

[سورة الطارق: 1]

وانتهت بإيقاع هادئ:

﴿أَمِلْهُمْ رُويْدًا﴾

[سورة الطارق: 17]

في البداية إيقاظ، وفي النهاية تسكين. توقظ الغافل من وهم أنه متروك، ثم تسكن قلب المؤمن من خوفه أن يكون الباطل متروكاً بلا حساب. بين الطارق ورويداً تتشكل شخصية المؤمن: قلب مستيقظ لا يغفل عن الحفظ، ومطمئن لا ينهار أمام الكيد. فلا البقطة تتحول إلى هلع، ولا الطمانينة تتحول إلى غفلة. يرى الخطر ويعمل، ويرى ربه أكبر من الخطر فيثبت.

صدى الآية

لا تستعجل الخاتمة لأن فصلاً أوجعك، ولا تمنح الباطل صفة الخلود لأنه طال. ما تراه الآن مشهد، وليس الكتاب كله. رويداً؛ فالزمن يمضي بالجميع إلى الله، وهناك لا يكتب الكائد النهاية، ولا يضيع الحق، ولا تبقى للباطل كلمة بعد القول الفصل.

الختامة

من طارق السماء إلى يقظة السريرة

ها نحن نبلغ نهاية الرحلة، غير أن سورة الطارق لا تترك قارئها عند نهاية ألفاظها؛ إنها تمضي معه بعد انقضاء التلاوة، كأن طرقاً خافتاً يبقى في القلب يسأله: ماذا رأيت تحت هذه السماء؟ وماذا عرفت عن نفسك؟ وأي سريرة ستلقى بها الله؟

بدأت الرحلة في الأعلى:

﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾

[سورة الطارق: 1]

بدأت بسماء لا يبلغ الإنسان أطرافها، ونجم يطرق الليل فيثقب ظلمته. رفعت السورة رؤوسنا فوق ضجيج الأرض، لكنها لم ترفعها لنضيع في المسافات؛ إنما أرادت أن تردنا من اتساع الكون إلى حقيقة النفس. فكان النجم البعيد طريقاً إلى اكتشاف القريب، وكانت السماء مقدمة لسؤال الإنسان عن حياته المحفوظة تحتها.

ولم تترك السورة الطارق مبهماً، بل جعلت بين ذكره وبينه سؤالاً يوقظ الدهشة:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾

[سورة الطارق: 2]

ثم كشفت عنه:

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾

[سورة الطارق: 3]

إنه نور لا يزيل الليل كله، لكنه يثبت أن الظلمة ليست محكمة الإغلاق. وهذه أول هدية تحملها السورة للقلب: ليس مطلوباً أن ترى الطريق كله كي تبدأ، فقد يكفيك من النور ما يثقب عتمتك، ويمنعك من الاعتقاد أن الليل هو الحقيقة الوحيدة.

آية واحدة قد لا تجيب عن كل أسئلتك، لكنها تعيد ترتيب السؤال. ودمعة واحدة لا تحو تاريخ الغفلة، لكنها قد تعلن أن القلب لم يمت. وخطوة رجوع صغيرة لا تبلغ بك نهاية الطريق، لكنها تخرجك من الجهة الخاطئة.

ثم انتقلت السورة من النجم إلى النفس، ومن الضوء المرئي إلى الحافظ الذي لا تراه:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

[سورة الطارق: 4]

وهنا تبدد وهم الإنسان أنه سائب في الوجود. ليست أعماله أوراقاً يطويها الزمن ثم يلقها في العدم، ولا خلواته مناطق خارجة عن العلم، ولا إحسانه الخفي ضائعاً لأنه لم يجد من يصفق له.

كل نفس عليها حافظ.

إنها رهبة للمسيء، لكنها عزاء للمحسن. تقول لمن ظلم في الخفاء: لم يضع ما فعلت. وتقول لمن احتمل الظلم في صمت: لم يضع ما احتملت. وتقول لمن قاوم ذنباً ولم يشهد معركته أحد: هناك من علم ضعفك ومجاهدتك. وتقول للتائب: كما حُفظ الذنب، فإن رجوعك وندمك واستغفارك لا يضيع.

الحفظ ليس كميناً للإلحاق بالإنسان، بل مظهر من مظاهر العدل المحكم؛ فلا يضيع حق لأن البشر نسوه، ولا يعلو باطل لأن أصحابه أحسنوا إخفاءه. ثم أخذت السورة الإنسان إلى مرآة لا يحب المتكبر النظر فيها:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾

[سورة الطارق: 5]

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾

[سورة الطارق: 6]

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾

[سورة الطارق: 7]

أعادته إلى ما قبل الاسم والمنصب والمال والنسب. إلى وقت لم يكن فيه قادراً على أن يختار وجهه، أو يخطط لجسده، أو يطلب الحياة. سبقت رحمة الله وعيه، وسبق تدبير الله إرادته، وسبق الخلق كل ادعاء سيأتي بعده بأنه صنع نفسه.

لكن السورة لا تذكر أصل الإنسان كي تهدر كرامته، بل كي ترد الكرامة إلى واهبها. فالإنسان ضعيف في أصله، عظيم بما كرمه الله به؛ والموازنة بين الحقيقتين تحرره من احتقار الذات ومن عبادة الذات معاً. هو ليس إلهاً صغيراً صنع وجوده، وليس شيئاً مهماً بلا قيمة. هو عبد مخلوق، مكرم، مكلف، محفوظ العمل، مردود إلى ربه. ومن البداية أقامت السورة حجة النهاية:

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾

[سورة الطارق: 8]

فالذي بدأ الخلق لا يعجزه أن يعيده. والذي أخرج الإنسان من ماء إلى جسد، ومن غياب الصورة إلى اكتمالها، قادر على أن يخرج من قبره. ليست الإعادة معركةً بين قدرة الله وتفرق الأجساد؛ فالأجساد والذرات والأرض والزمن كلها في ملكه. لقد كان الإنسان قبل خلقه لا يملك من أمره شيئاً، ومع ذلك وُجد. فكيف يجعل عجزه عن تصور البعث حكماً على قدرة خالقه؟

إن أجسادنا نفسها تحمل البرهان الذي نبحث عنه: وجودنا شاهد على
إمكان إعادتنا، والبدء دليل الرجوع.

لكن الرجوع ليس عودةً جسدية خالية من المعنى؛ فالإنسان يعود
حاملاً تاريخه الداخلي:

﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾

[سورة الطارق: 9]

هنا بلغت السورة أعمق موضع في الإنسان. لم تقل: يوم تعرض الصور
التي صنعتموها عن أنفسكم، ولا يوم يقرأ الناس سيركم كما كتبتموها؛ بل
يوم تختبر السرائر، وتتميز النيات، وتظهر الحقائق التي غطتها اللغة والمظهر
والتبرير.

في ذلك اليوم تسقط المسافة بين ما كنّا وما قلنا إننا كنّا عليه.

تظهر الطاعة التي أخفاها الإخلاص، ويظهر الذنب الذي غطاه
الادعاء. ينكشف صبر لم يعرفه الناس، كما ينكشف ظلم لم يثبتوه. تتقدم
الحقيقة التي كانت في القلب، وتراجع الرواية التي أقنعنا بها الجمهور.

وليس المقصود من هذه الآية أن ينشغل الإنسان بتفتيش سرائر الخلق؛
فالسرائر إلى الله. إنما المقصود أن يعود كل قارئ إلى داخله ويسأل: هل
حقيقتي أجمل من صورتي، أم أنني أنفق عمري كله في تجليل الصورة،
وأترك الحقيقة تتآكل في الخفاء؟

ليس الخوف أن يعرف الناس من نحن؛ الخوف أن نلقى الله بحقيقة لم نحاول إصلاحها.

ومع انكشاف السرائر يسقط العكازان اللذان اتكأ عليهما الإنسان في الدنيا:

﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

[سورة الطارق: 10]

لا قوة من ذاته تدفع، ولا نصره من خارجه تنقذ. يذهب المنصب، وتصمت العشرة، وتنفض المصالح، وتسقط الصورة العامة. لا مال يشتري تعديل الكآب، ولا جمهور يحول الباطل حقاً، ولا صديق يحمل عن الإنسان ما كسب.

وهذا لا يعني أن القوة الدنيوية مذمومة، أو أن الاستعانة بالناس محرمة؛ إنما المذموم أن تتحول الأسباب إلى أرباب في القلب. أن يعتقد الإنسان أن قوته مستقلة، أو أن ناصره يملك له ما لا يملكه إلا الله.

المؤمن يعمل بقوة، لكنه لا يعبد قوته. ويشكر من نصره، لكنه لا يبيع له ضميره. يأخذ بالسبب، لكنه يعلم أن السبب نفسه مخلوق محدود.

يبدل جهد القادر، ويستعين افتقار العاجز.

ثم أعادت السورة أعيننا إلى السماء والأرض:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾

[سورة الطارق: 11]

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾

[سورة الطارق: 12]

مطر يعود، وأرض تنشق، ونبات يخرج من موضع ظنه الرائي ميتاً. كأن الكون كله يعيد على الإنسان درس الرجوع: لا تحكم على الموت من ظاهره، ولا تجعل سكون التراب دليلاً على انعدام الحياة، فالذي أخرج التبت قادر على إخراج الإنسان.

وفي صورة الصدع معنى يفيض على القلب: ليست كل الشقوق نهايات. بعض الانكسارات أبواب تعبر منها حياة جديدة. تنشق البذرة لتصير شجرة، وتنصدع الأرض ليظهر النبات، وينكسر غرور الإنسان فتبدأ التوبة.

وهذا تأمل تربوي مستفاد من الصورة، لا تفسير بديل لها؛ فالمعنى التفسيري للصدع هو تشقق الأرض عن النبات. لكن القرآن يعلمنا أن ننظر إلى الكون بعين الاعتبار، وأن نقرأ في خروج الحياة من التراب شاهداً على القدرة، ورمزاً منضبطاً للرجاء.

فكم من قلب ظن صاحبه أنه مات، ثم وصله مطر القرآن. وكم من إنسان حكم على نفسه بالنهاية، ثم بدأت حياته الحقيقية من شرخ في جدار الوهم.

وبعد أن أقسم بالسماء والأرض جاء المقسم عليه:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾

[سورة الطارق: 13]

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾

[سورة الطارق: 14]

القرآن لا يضاف إلى ضجيج العالم بوصفه صوتاً آخر، إنه يأتي ليفصل.
يميز الحق من الباطل، والجد من اللعب، والعبودية من الهوى، والعدل من
الظلم، والطريق من التيه.

ليس مكاباً لتجميل العبارات وحدها، ولا خلفيةً صوتيةً لمشاهدنا المؤثرة،
ولا بركةً افتتاح تُعزل عن القرارات. إنه قول فصل يريد أن يبلغ مركز
الحياة: أن يحكم تصور الإنسان عن ربه، وعن نفسه، وعن الخير والشر،
وعن الدنيا والآخرة.

وما أخطر أن يكون القرآن حاضراً في الصوت غائباً عن الموقف، يُتلى
في المجالس ثم تُنتهك قيمه في القرارات، ويُكتب على الجدران ثم لا يدخل
إلى الضمائر، ويرُفع في الخصومات ولا يُسمح له أن يحاكم هوى من يرفعه.
إن تعظيم القرآن ليس في أن نستعمله لنهزم خصومنا، بل أن نسمح له
أولاً أن يهزم الباطل فينا.

وإذا كان قولاً فصلاً، فليس لأدبنا أن يتسلط عليه. الكلمة الأدبية
خادم للمعنى، لا منشئ لمрад لم يدل عليه النص. قد نستلهم من الآية أثراً في
النفس، وقد نسقط هدايتها على واقع معاصر، لكننا نظل أمناء في التفريق
بين التفسير المنقول والتأمل الأدبي والإسقاط التربوي.

فأجمل الخواطر لا تصبح تفسيراً لمجرد جمالها، وصدق التأثر لا يغني عن صحة الدلالة.

ثم كشفت السورة أن الباطل لا يستقبل القول الفصل دائماً بإنصاف:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾

[سورة الطارق: 15]

إنه يعرف أن الحق إذا وصل إلى الناس صافياً فضح ما أقامه من أوهام، ولذلك يصنع الحجب: يشوه، ويقتطع، ويخلط، ويستعمل قوة الصورة لإخفاء ضعف الحجّة.

لكن الكيد البشري لا يجري في فراغ:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

[سورة الطارق: 16]

لله التدبير المحيط الذي يبطل به مكر الكائدين ويجازيهم عليه بعدله وحكمته. وليس كيد الله ككيد المخلوقين؛ تعالى الله عن المماثلة. كيد البشر قد يقوم على الظلم والعجز والخوف، أما تدبير الله فصادر عن علم كامل وقدرة مطلقة وحكمة وعدل.

إنهم يخفون خطتهم عن البشر، لكنهم لا يخفونها عن الله. يتحركون في ملكه، وبأجساد خلقها، وعقول منحها، وتحت سماء أقسم بها، وعلى أرض تنصعد بأمره. يستطيعون أن يؤذوا، لكنهم لا يملكون المصير. وقد يغلبون في مرحلة، لكنهم لا يكتبون خاتمة الوجود.

ومن هنا جاءت الكلمة الأخيرة:

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُوَيْدًا﴾

[سورة الطارق: 17]

رويداً؛ لأن الكيد مهما طال قصير أمام الأبد.
رويداً؛ لأن تأخر الجزاء ليس غيباً للعدل.
رويداً؛ لأن المؤمن مسؤول عن الثبات، لا عن تحديد ساعة النصر.
رويداً؛ لأن الزمن لا يهرب من الله، بل يحمل الجميع إليه.
ولا تعني «رويداً» ترك العمل، أو السكوت عن الظلم، أو إهمال أسباب القوة. فالنبي صلى الله عليه وسلم الذي خوطب بالإمهال هو الذي بلغ وصبر وجاهد وأخذ بالأسباب. إنما تعني ألا يدفعك الاستعجال إلى تجاوز أمر الله، وألا تحول تأخر النتيجة إلى يأس، وألا تمنح الباطل صفة الخلود لأنه طال.

الصبر ليس أن تتوقف، بل أن تستمر على الوجه الصحيح حين تتأخر الثمرة.

الخيط الجامع

إذا أردنا أن نجمع السورة كلها في خيط واحد، وجدناها تنتقل بالإنسان بين خمسة أوهام كبرى، فتهدمها واحداً بعد آخر:

وهم الغفلة:

أن يظن أن الكون صامت ولا يحمل إليه رسالة؛ فيأتي الطارق ويوقظه.

وهم الانقلاط:

أن يظن أن أعماله تضيع إذا غابت عن الناس؛ فيأتي الحافظ ليحصيها.

وهم الاستقلال:

أن يظن أنه صنع نفسه ويملكها؛ فترده السورة إلى الماء الدافق.

وهم النهاية:

أن يظن أن الموت يغلق القصة؛ فتثبت قدرة الله على رجعه.

وهم الستر الدائم:

أن يظن أن سريره ستبقى خلف قناعها؛ فيأتي يوم ابتلائها.

وهم القوة:

أن يعتقد أن ذاته أو أنصاره يحمونه من الجزاء؛ فتسقط القوة والنصرة.

وهم العبث:

أن يتعامل مع القرآن وكأنه قول يحتمل التجاهل؛ فيأتي الحكم بأنه فصل لا هزل.

وهم سيادة الباطل:

أن يظن أن الكيد يملك الكلمة الأخيرة؛ فيأتي تدبير الله والإمهال المحدود.

وهكذا لا تكتفي السورة بإثبات البعث؛ إنها تعيد بناء الإنسان الذي يؤمن بالبعث. تجعله مراقباً لسريته، متواضعاً أمام أصله، مسؤولاً عن عمله، متحرراً من عبادة القوة، جاداً في تلقي القرآن، ثابتاً أمام كيد الباطل، مطمئناً إلى تدبير الله.

• ماذا يبقى بعد الرحلة؟

يبقى أن تنظر إلى السماء بطريقة مختلفة. لا بوصفها امتداداً بعيداً فوق حياتك، بل آية تردك إلى خالقك.

ويبقى أن تدخل خلواتك وفي قلبك معنى الحافظ؛ فلا تجعل غياب الناس إذناً لسقوطك، ولا تجعل صمتهم سبباً ليأسك من أجر الخير. ويبقى أن نتذكر أصلك كلها أغراك منصب أو علم أو مال باحتقار أحد. أنت مكرم، لكنك مخلوق. قوي، لكن قوتك موهوبة. قادر، لكن قدرتك محدودة. ظاهر للناس، لكن حقيقتك عند الله.

ويبقى أن تراجع سيرتك قبل أن تبلغ يوم ابتلائها. أن تصلح ما تستطيع، وتوب مما عرفت، ولا تستهلك عمرك في ترميم الصورة وتهمل الوجه الذي ستلقى به الله.

ويبقى أن تقرأ القرآن على أنه قول فصل. لا تطلب منه أن يبارك هواك، بل اطلب منه أن يهديك. لا تحصره في خصومك، بل أدخله إلى نفسك. لا تسأل فقط: ماذا تقول الآية عنهم؟ بل اسأل قبل ذلك: ماذا تريد مني؟ ويبقى أن تعمل حين ترى الكيد، دون أن تعبد الكائدين خوفاً. تأخذ بالأسباب، وتحفظ العدل، ولا تكذب لنصرة الحق، ولا تحن دفاعاً عن الأمانة، ولا تجعل ظلام خصمك مبرراً لإطفاء النور فيك.

ويبقى أن نتعلم كلمة السورة الأخيرة: رويداً.

قلها لقلبك حين يستعجل الثمرة.

وقلها لغضبك قبل أن يظلم.

وقلها ليأسك حين يرى الباطل قائماً.

وقلها لغرور القوة حين يظن أنه باق.
وقلها لنفسك وأنت تبنيها؛ امض ولا تنقطع، وأصلح ولا تيأس، واستعن
بالله ولا تعتمد على حولك.

رويداً؛ فكل شيء يمضي إلى موعده.

الكلمة الأخيرة

يا قارئ سورة الطارق، لست واقفاً تحت سماء فارغة، ولا عابراً في حياة
بلا حساب. فوقك آيات، وعليك حفظة، وخلفك بداية، وأمامك رجوع،
وفيك سريرة، وبين يديك قول فصل.

قد تستطيع أن تخفي حقيقتك عن الناس زمناً، لكن النجاة ليست في
أن تحسن الاختباء؛ النجاة أن تصلح ما تخفيه. وقد تستطيع أن تجمع حولك
قوة وأنصاراً، لكن الأمان ليس في كثرتهم؛ الأمان أن تكون مع الله قبل
أن تنفض القوى والأنصار.

وقد ترى الباطل يخطط، ويمتد، ويغلب في جولة؛ فلا تجعل مشهداً عابراً
يحو من قلبك حقيقة السورة. الكائد محاط، وعمله محفوظ، وسريته راجعة
إلى الظهور، وأجله قصير وإن طال في حسابنا.

أما القرآن فليس عابراً؛ إنه القول الفصل.

بدأت السورة بنجم يطرق الليل، ولعلها تنتهي فيك بقلب يفتح. فإذا
انقضت التلاوة وبقيت الغفلة كما هي، فقد رأينا الضوء ولم نهتد به. وإذا
تحرك في الداخل سؤال صادق، أو توبة خفية، أو يقين أعاد الأشياء إلى
أحجامها، فقد بلغ الطارق بابها.

وليس أجمل ما تركه السورة في القلب خوفاً مجرداً، ولا طمأنينة مجردة، بل اجتماع الخوف والطمأنينة في موضعهما الصحيح: خوف من سريرة فاسدة ستظهر، وطمأنينة إلى رب لا يضيع عنده صدق ولا حق، خوف من الغفلة، وطمأنينة إلى الحفظ؛ خوف من الرجوع بلا زاد، وطمأنينة إلى باب التوبة ما دام العمر باقياً؛ خوف من كيد النفس والناس، وطمأنينة إلى تدبير الله.

وهكذا يخرج المؤمن من سورة الطارق مستيقظاً مطمئناً:

مستيقظاً؛ لأن كل نفس عليها حافظ.
ومطمئناً؛ لأن كيد البشر لا يخرج عن تدبير الله.

فإذا طرق الليل بابك، فارفع رأسك إلى السماء، ثم اخفضه إلى قلبك. هناك تبدأ الرحلة الحقيقية: من النجم الثاقب إلى السريرة، ومن السريرة إلى التوبة، ومن التوبة إلى يقين يعرف أن الله الذي بدأ الخلق قادر على رجعه، وأنه سبحانه لا تضيع عنده خافية، ولا يغلب أمره كيد، ولا تكون الكلمة الأخيرة إلا لما قضاه من الحق والعدل.

المراجع التفسيرية

استندت هذه الرحلة الأدبية التدبرية – في بيان المعاني التفسيرية الأساسية، وعرض الأقوال المشهورة، والتنبيه إلى مواضع الخلاف – إلى أمهات التفاسير الآتية:

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن
للإمام محمد بن جرير الطبري.
- تفسير القرآن العظيم
للإمام إسماعيل بن كثير.
- الجامع لأحكام القرآن
للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.
- التحرير والتنوير
للعلامة محمد الطاهر بن عاشور.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان
للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.
- وقد تمت الاستفادة من هذه التفاسير في مسائل منها:
- معنى الطارق والنجم الثاقب.
- جواب القسم ودلالة الحافظ.
- معنى الماء الدافق والصلب والترائب.
- **الخلافاً في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾.**
- معنى ابتلاء السرائر.
- دلالة نفي القوة والناصر.
- تفسير الرجوع والصدع.
- معنى القول الفصل ونفي الهزل.

- معنى كيد المكذبين وتدبير الله في مقابل كيدهم.
- دلالة الإمهال في ختام السورة.

تنبيه منهجي

هذا الكتاب نص أدبي تدبري، غايته تقريب هدايات سورة الطارق إلى القلب، وربط معانيها المعتمدة بالنفس والحياة والواقع. وهو لا يدعي الإحاطة بعلوم السورة، ولا يغني عن كتب التفسير المتخصصة، ولا يجعل التأمل الأدبي تفسيراً ملزماً.

وقد جرى فيه التمييز بين:

- التفسير المنقول: وهو بيان معنى الآية كما قرره المفسرون وأهل اللغة.
- التأمل الأدبي: وهو استحضار ظلال المعنى وآثاره الوجدانية دون ادعاء الحصر.

• الإسقاط التربوي المعاصر: وهو الانتفاع بهداية الآية في مشاهد الإنسان وواقعه، مع بقاء سياقها الأصلي محفوظاً.

وما كان في هذه الصفحات من صواب فن فضل الله وتوفيقه، وما كان فيها من نقص أو خطأ فن قصور الكاتب، وكتاب الله منزّه عن ذلك.

تمَّ الكتاب بحمد الله